المقامة اللامية

الجزء الاول

أحمد العبدالله

جمعة اللامي

بغداد ـ عراق
1977 ـ 1978

(**الـم**) : هو ذا اسمي ، أو اسم ابي ، لكنه ، للدقة ، اسـم جـدي الاكبر ، كان رجلا كوفيا ، ارتاع للاوضاع التي صاحبت واقعـة صفيـن وتطورت بعدها . كان كفيف البصر في تلك الايام ، بيد أنه كان يتمكن من امتطاء دابته دون مساعدة أحد . وهكذا فانه بعد أن أدى فريضة الفجر ، وكان الصباح ربيعا ، امتطى فرسه ، وأمر زوجته وأبناءه وابناء عمومته وبقيـة أهله وخلصاءه أن يغادروا الكوفة في الحال .

وفي الواقع كان صفوة آل (**الـم**) يكابدون مرارة وقسوة في تلك الايام ، فاستحسنوا أمر كبيرهم ، وارتحلوا باتجاه الجنوب . وكان في عيرهم كلبهم الذي رفض اتباع القافلة وحرد في مكانه ، غير أن الحيوان عند ما استمع الى (**الـم**) يقتلع عمامته من فوق رأسه الحليق ويقول : « يا رب صفي صفين ، يا رب المؤمنين والزنادقة والكفرة ، يا رب الجماد والنبات ، يا رب كل من دب ودب ، انزلني منزل صدق » تبع القافلة ، يترامح تارة قدامها ، ويتباطأ تارة أخرى خلفها ، حتى اذا وصل الركب الى الموقع الذي تقع فيه مدينـة العمارة حاليا ، وكان الوقت مساء ، ترجل (**الم**) عن فرسه ، وصلى ركعتين ، ثم بقي في جلسته لوقت غير طويل ، قام بعدها الى فرسه فامتطاها وانحرف الى اليسار ، فسارت خلفه قافلته الصغيرة ، وظل يمشي بها يوما ونهارا وليلة حتى اعترضهم نهر صغير ، وعندئذ حرنت الفرس في مكانها ، وهتف **الـم** من فوقها : آن لنا أن نترجـل .

وفي تلك الليلة ، عندما أديرت فناجين القهوة بين (**الم**) وابنائـه وابناء عمومته وأهله وخلصائه ، وقبل ذلك ، وكالعادة ، كانوا قد تناولـوا العشاء على مائدة واحدة ، وقسم الزاد بالتساوي والعدل بينهم قال (**الـم**) بصوت مسموع : الليلة حلت رحلة الطمانينة .

وقال أحد الحاضرين : سنبني له مرقدا في الجانب الغربي من النهر . ثم قال آخر : سنسمي مكاننا : بلدة (**لام**) . وفي تلك الليلة انشغل المرتحلون السابقون بحفر اللحد وبدق أوتاد بيوت الشعر ...

« ابراهيم »

« سـالمـة »

« .. وكثيرا ما تهيأ لي ، يا ابراهيم . ان سالمة لا تحبني ، أو أنها تتطابق مع أفكاري وتتقاطع معها ، وتنجذب الى قطب آخر لا اعتقد بوجوده ، الروح . أيحدث هذا لانها مزيج من أرومتنا وأرومة ملكة ، أم انها اعادة تركيب لهاتين الارومتين ؟ . وكما تعلم فانه لا أجيد تقليد أفكار أبي ، ومع ذلك تظل المادة هي أصل كل شيء ، حتى هذي الخدعة الصغيـرة التـي نتوهمهـا : الـروح ... »

« ان أبي يظل هو الماضي ، واتعثم انني المستقبل . ويبدو لـي أن سالمة ، لغاية يومي هذا تحمل أبي وتحملني وتحملك . والصعوبة الوحيدة التي ألقاها حين أعيد فحص سالمة مع عقلي هي أنها تكون قطب الماضي بينما تحدثني عن المستقبل ، وتهوم في عالم لا عقلي حين تحدثني عن الروح . وتبدو عقلية أكثر مني اذ تطرح قضية الحرية ازاء السجن والقتل والصراع ...»

« والحقيقي هو أن المسافة القصيرة التي كانت بيني وبينها قد اتسعت الآن . ماذا تسمى سالمة ؟ . انت تحبها . وافتكر أنك ستقول لي : انها اغتمار الحياة. وسأرد عليك في الحال: انها الخصوصية الوطنية لكل عائلة (**الم**) . ومن يدري ، فقد أوكن على غلط ، وقد تكون انت على صواب .. »

« وليد الاحمد »

يوم تقارب الدورة أن تنتهي لتبدأ . يدخل أحمد العبد الله بيته ، متقدما في الظامة الشفيفة ، والمدينة ما تزال نائمة ، من ناحية المسجد ، بعد أن يدنف في زقاق يقوده الى زقاق آخر . منغمرا في السكون الذي يسقف البلدة ، دون أن ينظر الى نجمة الصباح ، يتعامد على الارض أو ينكفيء اليها . خفيف الجسد حتى ليبدو من البعيد كما لو أنه شبح يتهجى طريقه ، لا فرق بينه وبين الاصوات التي يسمعها من شقوق الجدران ، أصوات ديدان وحشرات طيارة ، ثم يرى جسده ، أسمر ناحلا ، ملفوفا بقماشة لا يستطيع تمييـز لونها ، وعباءة من الوبر يدرج على ساقين تستدقان قبل القدمين ، ولكنه جسد متوتر يريد أن ينفلت من تلك الجاذبية التي تستدعيه الى الاعلى وتلك التي تشده الى الارض ، متكورا يسير على حافة قوس لدائرة لا يمكنه أن يعرف طول نصف قطرها، هامسا ليديه اليابستين، حيث العروق في ظهر كفيه، زرقاء نافرة تبغي الانفصال عن اللحم والعظم ، بينما الهواء الآتي من الشمال وحده، يستطيع أن يدله على الحركة في قدميه ، في انسياب النهر ، وميـلان سعف النخيل ، لانه هواء يكف في تلك اللحظات عن أن يكون وسطا بين حيوات أخرى ، حتى ليكاد يفهم أن جسده ، في هذه الحميا التي تنتشي بها أعضاؤه ، يتشابه ولا يتشابه مع كل الذي يحيط به ، وا نهذا النفار المستديم بيـن

رأسه وما حواليه ، يبدو مثل حلقات من سلسلة لا أول لها ولا آخر . ثم اذ يتبين من وجوده الجسدي بتلك الصياغة الهيكلية ، يستعر عنده شوق الافتراق عنه . فهو في تلك اللحظات من الافتكار ، أكثر اشتمالا على أن يكون مفهوما بالنسبة اليه ، وأقدر منه في أي وقت مضى على معاينة قلبه ، ومخاطبة كل الحركات ، وما حواليه من أصوات وهسيس والتماعات وتنهدات وأصوات الصمت ، بتلك الانتباهات الفرحة الملتاعة ، وبذلك القبول باليأس والامل ، بينما تظل عيناه تندفعان الى أمام ، الى أسفل ، الى الشرق والغرب ، تريدان تضمن هذا الوجود وتحويله الى صور قلبية ، صور هو وحده يعرف كيف تعيد تركيب ما يحيط به . صور تكاد تتحدث فيها الحيطان الى الجداول والظلمة الى النور ، وتنفسه هو الى هذا الهذيان الذي لم يتوقف بين الحجر وقطرة الماء في قعر النهر .

ثم يتوقف عند باب داره ، والليل يلملم نفسه متعامدا مع الارض ، مع تلك النقطة الوحيدة التي فيها جرم أرضه ، ومائلا الى الامام قليلا حتى ليكاد يمر في منتصف البعد الادق لتلك النقطة الجرمية ، وهو يتحدث الى صمته : يا هذا ، كيف يتساوى الغلط والصواب ؟ وكيف يكون لليل أن يستكمله النهار ليصير يوما ؟ ولم يكن يتعذب لهذه الفكرة . قد ياسو أحيانا ، بيد أنه يرى أيامه متصله ليلا بنهار في نجود من الرمل ، وسفر غامض لا تسعفه الذاكرة في اعادة تركيبه ، سفر ابتدأ من حيث يعرف ولا يتذكر ، سوى أن نجودا صحراوية ، وأبسطة لا متناهية من الصبير ، وجثث الحيوانات ، ورماد المواقد ، وبقايا حبال ، وهشيم حبال وأوتاد ، وتضاوير رموس ، تمتد في دوران ، وتدور في امتداد ، ورقائم من الجاد بلون حائل تتحول بين أصابعه الى نعومة ، نعومة في غاية الرهافة والحساسية ، فيخط عليها أقوالا ، بصبغ كثيف أسود اللون ، كلمات لا تضطرب في رأسه ـ لكنها تخر عليه ، من عل كالسيل العرم ، فيضع الحرف الى جانب الحرف ، والجملة التالية بعد التي سبقتها ثم اذ ينظر الى ذلك الذي تشكل ، يرمي به الى السماء وهو يصيح : يا رب الكافرين ،، يا رب المؤمنين ... يا ربي . فتتجول الرقائم في الفضاء الصحراوي ، هادئة ومرنة ، وتختلط في الهواء ، فيرى ـ في منظار روحه ـ انه ما يزال في سفره نفسه ، في النجود الصحراوية ، أو في أزقة المدينة قريبا الى تلك الحروف والجمل ، متعاندا في سيره وهو ينجذب الى الاعلى ، ومائلا معها اذ تميل الى الارض ، وهو ينجذب الى تلك النقطة الجرمية في كتلة الارض التي تشده اليها .

ان الحياة خيرة ، وكذلك الموت . والقضية هي في مبدأ القبول . صحيح أن الافتراق عن الناسوت ربما يكون الصعوبة ذاتها ، لكن تدريب النفس والزام الجسد في اختبارات قمع ، تتحول بالسلوك الى اختيارات ، يجعل من

هذا الكائن الارضي وليا للسماء . الولاية ؟ اية فكرة جنونية كانت تتربص باحمد العبد الله ؟ ولم يكن يرى في ذلك أي ضير ، وانه ـ وهو الذي يسكنه الحب ـ بمكنته أن يتعرف على العشق ، اذ بينما ناس المدينة انغمروا في الاحتيال اليومي على قلوبهم ، أو في تلك الاعمال البشرية الصرف يتصل أحمد العبد الله بخيوط لا حصر لها بين الارض والسماء .

تلك هي ايامه ، أحمد العبد الله ، وكان يعرفها بما فيه الكفاية ليجيد الحديث عنها في حياته ، حتى عندما يكون الليل على أهبة المغادرة ليفسح مجالا لصبح جديد ، اذ تبدأ كل الحيوانات والاشياء تتنفس يوما جديدا بعد أن يتقدم الهواء نازلا من المنحدرات البعيدة ، في شمال المدينة ، حيث يدخلها النهر ويقسمها الى نصفين .

ولم تكن تلك أيامنا : اننا لم نخترها ، كان ثمة بين البنادق وبيننا فاصلة صغيرة ، بيد أنها كانت بقوة البون الشاسع . لقد اكتشفت أننا ـ آنئذ ـ كنا في الخرائب ، غرب المدينة ، حيث انتشرت بيوت الطين المحطمة ، والحشائش قصيرة السيقان ، أما بعد الخرائب ، فقد كان ثمة الضريح المقدس ، قبر (**الم**) ، ثم المنخفضات المائية التي سمعنا بها ، ولم يرها أحدنا ، الا أحمد العبد الله ، عندما ذهب لزيارة وليد الاحمد ، بعد حادث دائرة الاستعلامات الوطنية .

قال أحمد العبد الله يساور نفسه : ان (الم) يبكي اللحظة بلده ، لان صفين في زمن آخر ، بعثت من جديد . وكنت أقول صامتا : ليس ثمة أكثر لطفا من عقوبة الدفاع عن الحرية . هذا هو الموت المحيط بنا من كل جانب ، وها هي الخرائب الحاضرة والبيوت القديمة تستقبل سكنة جددا . والضريح ما يزال في مكانه ، طالعا من بين الاعشاب وحيطان الخرائب ، تنتصب ساريته بين دخان البارود الكثيف ، وكن أحمد العبد الله يمسك بيده جريدة من سعف النخيل .

قال : خذ هذه .. فالخسارة ليست الهزيمة . وناولني العصا المجرودة . **عندما كنت طفلا غالبا ما تصورت انني جندي لا يود احتراف القتل لكنه يتمنى أن يكون مقاتلا ، لذلك كنت أضع جريدة السعف فوق كتفي الايسر ، معلقة في الهواء أو مضطربة ، وأمشي فوق أرض حصباء ، عدلت فيها طريقا ضيقا حيوانات الجر والخراف وأرجل الرعاة ، بعد أن تغادر الحيوانات بساتين النخيل في التخوم البعيدة من الضفة الشرقية ، باتجاه شريعة الماء . أكان ذلك عالم الطفولة أم طفولة البشرية ؟ ان كل شيء لم يكن يرتهن الا لكونه حلما عذبا . وفي ذهني الصغير ـ يحدث هذا في بيتنا أو مع الصحاب ـ كنت أخترع حكايات الغزو والعراك الصعب بين المدينة والنسور الوحشية الهابطة من السماء على غير ميعاد ، فكان الاطفال يتبادلون نظرات الخوف خلسة ، فكنت**

أضيف في الحال كيف أن النسور الوحشية تتهول الى كرات نارية هائلة . تفرخ كرات أصغر منها وبشرا بشعي الخلقة مدججين بالسلاح ، فينسل الصغار والفتيان من المكان واحدا بعد الآخر ، لافاجأ بنفسي وحيدا وقد خسرت لذة استماعهم . غير ان خسارتنا في الطفولة لم تكن خسارة ، فطفولتنا الرخية المشبعة بروح البطولة والامتثال لتاريخ الاجداد ، كانت كافية لان تجعل الفريقين المتقابلين ينطرحان على الارض من تعب العراك الاخوي ، حيث لا غالب ولا مغلوب ، فتدخل البهجة البريئة الى قلوبنا ، بعد مناوشات بالعصي والايدي المتسخة وتزاحم الاجساد المعروقة دوما. أما الخسارة فيما بعد الشباب . وفي الوضع الذي عشناه في الخرائب ، فقد كانت من طراز آخر : لقد انطوت رجولتنا على حالة من التشبث بأن مدينة (الم) معافاة وخالية من الاثم ، وانها تحولت الى ملجأ لاولئك الذين يفرون من العدالة المنتهكة في مدن كثيرة مجاورة . العدالة : نعم ، ولا شيء غيرها . فالمساواة تبدو وهما أو هي الوهم بعينه . وكان وليد الاحمد يقول لي : المساواة تعني عودة البشرية الى عذريتها الاولى ، هذا هو طريقنا الجديد . فاقول له وانا أنظر في القرآن : كما قال أبوك ، هذا لا يحدث الا في الجنة . ينظر الى من عينيه الصغيرتين ويخبرني بطريقة من توصل الى يقينه : أنت تتحدث عن وهم ، قد أعذرك الآن فانت فنان ، ولكن دعني أقول لك : ليس ثمة سوى المادة ، انها الاولى والاخيرة ، هي الظاهر والمستتر ، أما الله فخرافة ، وأبقى مسمرا في مكاني ، أنظر الى عينيه الصغيرتين واظافره المبرودة وشعر راسه المتمرد . وكنت أجد في ميلا الى افكاره ، وكنت أحس انه لا يجيد تنظيمها ، بيد أن عقلي لم يكن على استعداد لانكار وجود الله ، وهكذا كنت أقول له دوما : اثبات الحالة يعني انكارها ايضا ، وانكارها اثبات لها ، أليس هذا هو الجدل ؟ وعندما عالنت أحمد العبدالله بما يدور في رأسي ، تبسم في وجهي وقال ضاحكا : يا ولدي من هنا يبدأ الخراب ، فكيف الامساك بطرف حبل الفوز ؟

كنت معه في الطريق الى المسجد . فادار وجهه الى وقال : الكلام الجميل ليس صحيحا باستمرار . واضاف : ان الغزو يبدا من الداخل باستمرار ، قد يسمي وليد هذا بالطابور الخامس ، ولكنه الحقيقة ، وقبل أن ندخل المسجد أكمل قوله : استمع الى وليد بعقل ، ولكن اياك أن تخذل سالمة أو تستبدلها به . وعندما جلس في باحة المسجد ، متربعا ينظر الى جيرانه ، انطلق صوته دون أن يوجهه لاحد : اننا معرضون للغزو في اية لحظة ، وأراد أن يقول شيئا ، لكن رجلا من الجوار سأله : لماذا مدينة « لام » هدف للغزو ؟ قال أحمد العبدالله :سيحد هذا لانه من طبيعة الاشياء ، ان الصراع قائم بين الارض وجذر النبتة ، إذن بين الانسان والانسان ، الم تذكروا قصة هابيل وقابيل ؟ أو كان محمد علي غلط ؟ ثم حذر الجميع : لا بد من تعلم

حرفة القتال واجادتها ، فالمدينة التي لا تقاتل تكتب صك موتها بدماء أبنائها . واذا سكت ، ران الصمت على الجميع ، غير أن أحمد العبدالله استمر ينظر الى أبناء جلدته ، بينما انبرى صوت ليقول :

ـ يا شيخ أحمد ، كلامك يبلبل الناس

لم يرد أحمد العبدالله بشيء ، فاستمر صاحب الصوت :

ـ اننا اغنياء ومتحدون .

ومرة أخرى تصرف أحمد العبد الله وكأنه لا يستمع الى ما قاله صاحب الصوت ، الا أن الاخير تساءل :

ـ عن أى قتال تتحدث أيها الشيخ الجليل ؟

تحدث أحمد العبدالله هادئا :

ـ قل لرئيسك أن يخشى الله ويحترم البشر .

اضطرب الرجل قليلا ، فقد عرف أنه أصبح مكشوفا لكل الذين حضروا الى المسجد في ذلك اليوم ، وان أحمد العبدالله اختصر عليه الطريق الطويلة لتلك الاسئلة الاحتياطية التي ما زال في رأسه ، ثم قال بصوت متخابث :

ـ هل أقول له ان الشيخ أحمد العبدالله يجاهر ويدعو الى احتراب أهل المدينة مع بعضهم .. هل أخبره أنه مثل وليد الاحمد يدعو لصراع الطبقات ، ونكران اللـه ؟

وبصوت أجش رنت فيه كراهية عظمى قال أحمد العبدالله :

ـ قل له .. احمد العبدالله يقول : أنا لا أخشاه .

انتفض الرجل وهب واقفا ، والقى نظرة غامضة على أحمد العبدالله الذي عاد الى الصمت بعد أن طأطأ رأسه نحو الارض .

وكان ذلك مفاجأة لي ، فقلت : لم تتح لي فرصة القتال ، فنظر الى الارض مغمغما : هكذا أنتم وراور بدون فشكك ، انتم لا شيء » واستمر ينظر الى الارض . أما في ذلك اليوم البعيد ، حيث التقيته بعيد العشية . وكنت فتيا مغرما بمراقبة الظواهر ومراجعة كراريس صفراء عتيقة، فلم يكن ينظر الى الاسفل ، استوقفته ، كان يرتدي عباءة من الوبر موشاة عند الصدر والكمين بخطوط سوداء متعرجة ، وكان بطوله الفارع اذ رايته يقدم من نقطة الضوء البعيدة ، مثل نخلة وحيدة في أرض يباب . لم يبال في أول الامر ، لكنني الحفت عليه التحية والابصار الشزر . كان فتيا ، وكان وجهه يلصف وتبدى لي كما لو انه خرج من الحمام الشعبي الآن ، وكانت بشرة وجهه الاسمر متغضنة عند اسفل عينيه . وعندما مد يده الى وضغط على كفي ، أدركت أني أصبت السلام . كان جبارا في وقفته العمودية ، ولمحت التماعا في عينيه ، وكان فصاهما يلزبان في حركة حذرة مستريبة . انه أبي . وطويت الفكرة داخل فؤادي . لقد أتيت اليه من جنوب المدينة ، حيث يقع بيتي ، لاراه من بعيد

كما تعودت ذلك منذ اربع سنوات ، لكنني اذ رأيته يطلع ، بطوله الفارع ، من نقطة الضوء البعيدة ، في مشيته الجبارة ، انخذل قلبي ، وأسرعت أسير الى جانبه .

قال : ـ غريب

قلت : ـ لا

قال : ـ كأنني لم أرك قبل اليوم

قلت : ـ انا دائما أراك

قال : ـ لماذا . ماذا تريد مني ؟

قلت : ـ ربما لانك .. ربما لانني اريد محادثتك !

قال : ـ لماذا ؟

قلت : ـ لاشعر بالأمان

قال : ـ ومن أخبرك أني أشعر بالامان

فرددت بصوت خافت :

ـ استغفر الله العلي العظيم .

توقف في مكانه في الحال ، وأرسل بصره نحوى ، لقد رأني الآن بعيونه التي لا تحصى . وهتفت في داخلي : ان قلبه يراني بكليتى .. فابتسم في وجهي ووضع يده على كتفي .

ـ لعن الله العمر . أنت ابراهيم ، اذن ، كيف نسيت هذا .. ؟

كان الهواء خفيفا في ذيل الزقاق الذى وقفنا فيه ـ حدث ذلك في مساء صيفي ـ وكانت روائح البنفسج والدارنج والرطب والارض السبخة تشتعل في ذلك الليل المقمر ، وشعرت بالفرح لانني استوقفته ، لقد اعلنت لذاتي انتمائي له ، وازداد فرحي لانه حدثني ، فقد كان في الايام الاخيرة لا يقف مع أحد ، ويشك في كثيرين من أبناء بلدة أبيه ، خصوصا بعد ان اختفى وليد الاحمد بتلك الطريقة الغامضة ، غير أنه اذ ركز في عينين متوقدتين بعد أن سألته « لماذا تقول انتم وراور بدون فشكك ؟ » مال الى الامام قليلا . ثم سعل واستراح برهة ، واستدار دون أية كلمة . وللمفاجأة بقيت منشدها في مكاني ، انظر اليه يسير متطاولا ومنكفئا كما لو كان سيقع على وجهه في الخطوة التالية ، فايقنت أنني ضيعت فرصة العمر ، لان الرجل أراد أن يقول شيئا ، أو انني لم اكن شجاعا بما فيه الكفاية لاستل منه ما كان مغموما في صدره ، فأعطيته قفاي وسرت وأنا أنظر الى الارض .. وكان العريف الذى نزع شاراته الثلاث من عضده الايمن ، ينظر الى الارض تارة ، وتارة أخرى الى الاشكال الافعوانية التي صنعتها نيران الحرائق ، ماخوذا بهول الذي حدث ، كان ـ عندئذ ـ لا يني يبربر أو يطلق أصواتا مهمومة : « ضاع كل شيء » وكنت مثله ـ فعلا ـ أحس بضياع المدينة ، على انني تذكرت سالمة :

خرجت من بيت احمد العبدالله حاسرة الرأس ، وهي تعيط : الاطفال ، انهم يقتلون حتى الاطفال ، كانت تمسك بعصا من جريد النخيل وتلوح به نحو السماء ، عارية الصدر ، حافية القدمين ، كما لو أنها خرجت باعجوبة من بين أيدي زمرة من الجند الهمج المتوحشين . ثم تحول صوتها الحلو الرقيق الى نوع من أصوات الغضب ، وعندما رفعت ذراعيها الى الريح ودفعت بأحد الاطفال الى السماء ثم عادت وتلقفته وقربته من صدرها أدركت أنها تعاتب الله وتنادي على أحمد العبدالله وتندب وليد الاحمد وتتهم دائرة الاستعلامات الوطنية . ولم تكن سالمة متدينة ، ولم تخالف أباها أو تخرج على رأيه ، وهكذا رأيتها تعيط : اين أنت يا أبي ، ويضيع صوتها في الضجيج والصراخ والعويل أدركت أن احمد العبدالله يسكنها وانها تتقبله . كانت متوحشة فعلا، وتقاتل بطريقتها الخاصة ، تنتقل من مكان لآخر ، تحمل اكياس البارود وصناديق العتاد ، وطناجر المياه ، وتزعق بين آونة وأخرى : اين أنت يا أبي. وتخيلت أنها تريد أن تشكو له أمرا ما ، بينما كان أحمد العبد الله يقف قرب النهر ويعاين السماء وينهرها بجريدة من سعف النخيل وهو يدمدم : لهم الجريمة ولنا الفوز غير أن الغزاة كانوا أسرع من أية نجدة سماوية ، فهم جاءوا من السماء ، أو هكذا رأيت بدايات الكارثة . وفي الضفة الغربية كانت الصورة أمامي في صورتها الواقعية : لقد نزل المطر مزنا ، مرذولا مثل مزن الطلقات التي فاجأتنا ، ولم تكن الارض تستقبله بالمودة التي نعرفها ، رفضته كما يرفض الوليد صمغ الحليب الذى ينز من حلمة الثدي بعد ساعة على الولادة . وكما يكون الثدى المتورم متسخا بذلك السائل البني ، كان الاتساع الارضي أمامي ، يبدو قابلا للوصف : اتسخ الطين بامتدادات هلامية واشكال كبدية من الدم والامعاء المقطعة والاجساد التي بلا رؤوس ، والادرع والارجل المرمية هنا وهناك ، وتناثرت خوذ الجنود وشارات الضباط الملطخة بالطين ، ومن خلل الابخرة والاشكال الافعوانية للهب والدخان ، رأيت مئات الجثث تمددت بوضعيات لم تخترها ، وخيوطا من الدم بين مفاصل أصابعي وفوق ملابسي . لم أكن أقاتل في ذلك اليوم، ، كنت اصطدم بالقتلى أو أقع على جثتهم ، ولم أكن أحمل أي سلاح في يدي ، فالاسلحة كانت ممنوعة بأمر دائرة الاستعلامات الوطنية ، حتى في ثكنة الجيش ، التي تقع في بساتين المدينة الشرقية ، كانت الاساحة باردة ، ومن دون أي عتاد .. غير أن موت أصحاب الوجوه التي كنت ألاقيها يوميا جعلني أؤكد لنفسي هذا الرأي : ذات يوم سأسجل كل تاريخ هذه المدينة المنكودة .

وكانت جريدة السعف ما تزال في يدي ، وانا أحط بعيني أخيرا على وجه أحمد العبدالله ، فتفادى نظراتي والتجأ الى الارض ، قلت له : هذه ليست عزاء ، وهززت الجريدة في وجهه ، فانطوى على نفسه وتحصن بعباءته وأخرج

لفافة متسخة وأخذ يدخن . كان وجهه مصفرا ، وما زال القذى في أمواق عينيه ، ولقد توقف الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل قبل برهة ، ولا أدري من الذي منحني تلك الجرأة لان انصب مجلسا للمحاكمة : اننا مهدمون ، فهذا الخراب لمدينة « لام » التي تشكلت على امتداد عصور موغلة في القدم ، لم يكن ليتم بهذه السهولة ، لولا الجهود التي تضامنت جميعها على الباسها ثوب الذل . كان العريف خائفا ، مرعوبا ، وكانت ملابسه رغم اتساخها ما تزال أنيقة . وقلت في نفسي : أن الجنود الذين يهربون من الخدمة باستمرار وتسلط رجال دائرة الاستعلامات الوطنية على رقاب الجند ، له باع كبير في خلق هذه الجريمة ، وكان احمد العبدالله يتابعني حتى خلت أنه يقرأ أفكاري الصامتة فصرخت فيه : وانت .. ماذا فعلت .. لقد كنت تهوم فقط وتتحدث ، كحديث المسجد ، دون أن تتعلم حرفة القتال . كنا نحن الثلاثة . ابناء ذري المأساة تحققا ، ولم يخطر لي كيف التقينا ، هل اننا نجونا لاننا هربنا ، أم لان الرصاص كان قليلا ازاء الاعداد الغفيرة من الرجال والجنود والشباب الذين تجمهروا عند رقبة الجسر الوحيد الذي يقود الى الضفة الغربية ... وعند هذا المكان ، يمينا أو شمالا ، تنتشر المقاهي الصغيرة ويتجمع باعة الارصفة ، ويعرض قرويون يأتون من امكنة بعيدة البيض والدجاج ومساحيق التجميل الشعبية . والمساومة وحدها بين رجل ورجل ، وامرأة واخرى ، سرعان ما كانت تتحول الى علاقة كبرت واتسعت شيئا فشيئا لتترك علاماتها على كل عوائل المدينة . وشاءت المدينة بعد ذلك ظهور وسطاء في البيع من أهلها ، وأخذ مواطنون يقفون عند رقبة الجسر انتظارا لمن يقودهم الى العمل ، وفي غمرة حركة واسعة من البناء والبيع والشراء ، ظهر العسس والشرطة ، ونما العرف ليتحول بعد ذلك الى قانون ، وهكذا ولدت مدينة جديدة في رحم مدينة هانئة مطمئنة تأسست بين دق اوتاد بيوت الشعر وحفر لحد (الم) كانت مؤسسة جديدة .

مدينة ، أو مملكة للذباب ، والباعة المتجولين وطلاب المغامرة ، تترامى على الضفة الشرقية للنهر ، غير مكترثة بهذا الذي يجري لها ، بل انها قبلته ، وزاحمت الغرباء على الارصفة التي تطورت الى دكاكين ، واخذ العسس يمنعون أي قادم غريب من دخول المدينة الا باجازات مرور خاصة ، وكانت مدينة « لام » فرحة بهذا الذي يتم ، وصار شيخ المسجد يطنب كثيرا في مدح اولئك الغيورين من أبناء المدينة الذين يتبرعون بترميم ما يهتدم من حيطانه . وكان أحمد العبدالله اذ يذكر ما يقال له عنها يقول متبرما : مدينة لام لا بد أن تغادر موقعها الاول ، هذه هي طبيعة الاشياء . وعندما ظهرت مجموعات كبيرة من الفئران تحت الجسر القديم لم يعرها أحد أي اهتمام .. وفي يوم تال عند ما كان الناس يراقبون فيالق الفئران تحت الجسر تعترك

فيما بينها ، لم يبدوا اي تعليق ، غير انهم مدوا رقابهم الى الضفة الغربية ، عند ما ظهر احمد العبدالله والى جانبه طفلة لم تتعد العاشرة ، سوداء العينين، دقيقة الانف . كانت تلك « سالمة » التي كثيرا ما كانت ترافق احمد العبدالله قبل أن تبلغ الرابعة عشرة ، وبعد تلك السنة لم تعد تخرج معه في نزهاته المعتادة في سهوب الضفة الغربية ، وفضلت أن تبقى في بيته الذي يشرف على المدينة ، فوق تلة ترابية متماسكة في القسم الشمالي من قسمها الغربي .

وعند هذا المكان ، كان يمر ، أيضا ، موكب العزاء التقليدي الذي يستمر طيلة شهر صفر ، حيث يكسر الناس الجرار عند عتبات البيوت ، ويوزعون عصيدة الحنطة تقربا الى الاولياء ، في حين ينشط باعة الارصفة وأصحاب الدكاكين ، وتكثر الوجوه الغريبة في المدينة . ولم يشاهد احد من الناس أحمد العبدالله يسير في اي موكب عائلي ، كان يسير مع فرق المواكب جميعها، مع ابنه وليد الاحمد ، على الرصيف ، متثاقلا ومهموما ، يكاد ينكفيء على الارض . ثم اما اختفى الشاب في ظروف غامضة ، ظهر الشاب في حولين مع سالمة ، ثم دأب على الظهور وحيدا في الاحوال التالية ، لكنه كان يتقرب من تجمع نسوي تتوسطه « ملكة » بثيابها السوداء ، وفتياتها الثلاث يحملن صينيات الشموع من حولها، وهي ترفع صوتها بالبكاء والعويل وطلب المغفرة.

لقد نبتت ملكة في أزقة مدينة « لام » مثل زهرة برية . عند ما وفدت مع مجاميع الباعة المتجولين واشتغلت ببيع الحناء وقشور الرمان المطحونة ، ثم ابتاعت نزلا قريبا من سكن احمد العبدالله . لم تكن أنواره تطفأ حتى الصباح. قال عنها الجيران انها تأوى اليه الغرباء . وقال البعيدون عن بيتها : كانت تجالس صيادين ومتعاطيي أفيون يمضون الليل في ضحك وعويل وثغاء ، ولم اكن أرى شيئا جديدا في « ملكة » قبل أن تموت سوى انها كانت تنظر الى وليد الاحمد بحب غامر . كان في تلك السنوات صبيا صغيرا ، اعتاد أن يلازمني ، وعندما نمر من أمام بيتها كان يدير بصره عن بابها . وفي ذات يوم ، بعد ان كبرنا . سألني وليد الاحمد : لماذا كان أبي يتردد على بيت ملكة ؟

عندما شاهد بعض سكنة الحارة احمد العبدالله يدخل بيت ملكة لاول مرة ، التقت أعينهم في صمت .. ثم لما رأوه مرة ثانية وثالثة استنكروا عليه ان يثمن بيتا موبوءا ، غير ان احمد العبدالله لم يعر اهتماما لكل ما كان يقال، لذلك كان ينظر اليها من الجانب الثاني ، مجللة بالسواد ، في موكب صفر التقليدي ، دون أن تبدو عليه امارات الكره أو المحبة . كان يمشي بكامل جسده ، أما عيناه فقد كانتا شاخصتين ، الى حيث تكون ملكة ، لامعتين حزنتين ، تلوبان داخل محجريهما ، تقتربان شيئا مستريبا أو غير قابل للاعلان ، أو حتى مجرد التلميح . كان خائفا كمن ينتظر وقوع فاجعة ، وفي تلك المواسم سمعه بعضهم يردد لنفسه : مدينة موت .

ومع الموت الذي شخص عند رقبة الجسر ، كانت التفاصيل فائضة وغير ضرورية بالنسبة لنا ونحن في هذا الموقف ، مع أنها تظل الامكانية الوحيدة المتاحة لوصف ما تم في ذلك اليوم او ايجاد تبرير له . ولكنني سأظل أتساءل ، ما قيمة أي تبرير يترادف مع القتل ؟ ولماذا كنا نحن هدف القتل ؟ ان الدهر الذي عذب أجداد (الم) وحده هو الذي يقدم جوابا شافيا ، وكنت أناقش في وحدتي الاخيرة ، وأنا ارى سالمة قد تجاوزت الثلاثين ، والطفلة الصغيرة تلعب أمامها : ان كل شيء في حركة وتنافر وتجاذب ، وعقل هذه الحركة والتجاذب والتنافر وحده يستطيع أن يرى الاشياء بوضوح . ان العدالة لا يمكن أن تكون خارج الجريمة ، وأحيانا اقول : كل شيء وهم ، ما دام كل شيء يحمل معه الغازه . ان القرى القديمة تعرضت الى ابادة ، مرة بالصاعقة ، ومرة تالية بريح عاتية ، وكانت النار تطهيرا لمدن أخرى تلفت . غير أن مدنا جديدة كانت تنبت ، وعروقها تمتد بعيدا في ذلك الهشيم الذى خلفته المدن المبادة ، وهكذا يرتبط الموت بالحياة ، وتكاد ان تكون الحياة هي الحالة المؤقتة ، بينما الموت هو الحقيقة الوحيدة الخالدة . لذلك فان دورة الزمن عادت من جديد وتوقفت عند مدينة « لام » . ثم ان هذه المدينة لا بد أن تكون قد قامت بفعل الموت تجاه مدن أخرى ، وقد يكون ذلك بصيغة أخرى . ترى .. لماذا كان الناس الغرباء يقدمون الينا دون غيرنا من المدن ..؟ بالتأكيد كنا نقدم لهم الحياة الرخية ، ويقدمون لنا بدايات الموت . والذي حدث قبل أن نصل الى هذه الخربة كان يمكن ان يحدث في الكوابيس فقط . كان الصباح مثل أي صباح آخر تستقبله المدينة ، حيث اعتاد احمد العبدالله ان يذهب ، قبل أن يطلع ، الى المسجد . حينها يكون الصباح جنينا ، والريح الخفيفة المحملة بروائح الارض والحيوانات والبشر والزهور البرية ، تنزلق على الارض الحصباء من الضفة الغربية ، لتدخل بيوت المدينة ، بيتا بيتا ، وتترك تأثيرها السحري ، على مهود الاطفال الرضع المغطاة بملاءات زرقاء وحمراء وخضراء وبيضاء ، ويمم وجهه شطر الكعبة . كانت صلاته وقوفا دائما ، واذ رأيته ـ حدث هذا قبل عشر سنوات ـ يسبل يديه مع استقامة الجسد ، ويرفع رأسه نحو السماء ، خلت أنه يتحدث الى وجود يعرفه منذ زمن سحيق ، ويخاطبه بلغة التصادق ولهجة المعاتب ، مع أن شفتيه لا تتحركان الا بالخشية ، وجسده يهتز الى اليمين والشمال ، مضطربا مأخوذا وهو يقول « اياي ، اياي من الكبيرة » ثم ينحني قامته ويبرك على الارض ويسجد . لم تكن سجدة بشر . كان يبدو كما لو أن جسده يرسم قوسا هائلا ، مثل القوس المزهو الذي ينفتح من أسفله مباشرة باب المسجد ، ثم يهمهم ويكرر همهمات تتخللها أحيانا كلمات مفهومة : « فرحي ، انني أعرفك . وعذابي انني اعرفك وتعرفني ، يا هو انقذني من حبك ، ويا أنت أنكرني حتى امتحن في

انكاري لك ، فانا فيك أول المبتلين وآخرهم وتمود الهمهمة غير المفهومة ، العتاب الذي يتبين من النبرة والصوت ، الخوف الذي يمشي به الصوت ، الاقتدار الذي لا يعرفه الا الصوت ، وكما لو أن المهمة أوصلته الى ما كان يريد، أو كشفت له وإلها عزاءه الوحيد يخلد الى الصمت ، فأحس به مثل جزيء جزيئات احدى طابوقات أحد جدران المسجد ، حاضرا في وجود غائب ، وغائب اذ الشمس تشرق على جدار متماسك مزين بآيات من القرآن الكريم ، أو ببقايا رايات سوداء وحمراء وخضراء وبيضاء . تحولت الى مزق صغيرة ، بعد أن مرت عليها الاعوام ، وكان الصباح ـ آنئذ ـ ما يزال جنينا يتنفس هواء الليل الذي قارب الرحيل ، مترقبا تلك اللحظة الفريدة ، ليضيف يوما آخر الى تاريخ هذه المدينة التي تكونت على ضفة نهر صغير ، يشهد معها تقادم الليل والنهار ، يتسع باستمرار ، يتسع ويغير مجراه ، فتظهر فيه جزر صغيرة ، رملية أو طينية ، نبت فيها العاتول ونمت فيها الزهور البرية والقصب ، وسكنتها طيور غريبة ، مثلما التجأت الى أدغالها الكثيفة حيات وخنازير وبنات آوى وكلاب سئبة وخيول مجذومة .

ولكن عندما يبدأ الخيط الاسود يفترق عن الخيط الابيض ، يغادر أحمد العبدالله المسجد ، ويستمر صاعدا مع ارتفاع النهر ، تتطاير ذؤابات كوفيته في هواء صفيق ، تموج وسط النهر ، وتدخل البيوت المدينة بيتا بيتا ، ولم يكن أحد غيره يقي محافظا على هذا التقليد : الذهاب الى المسجد في هجيع الليل ، ومغادرته قبل أن يفترق الخيط الابيض من الخيط الاسود ... ومع الخيط الاسود الذي انفصل عن الخيط الابيض تنفست الارض وتثاءبت الخراف ، وايقظت الامهات الزوجات الصغيرات ، ثم اوجرت التنانير بعد ذلك. كان الاطفال يجلسون عند عتبات البيوت ، او يدرجون في أحواش البيوت بينما كان الشبان المتزوجون حديثا ينامون خليي البال بعد نهار من العمل الشاق وليل من الاتصل الجنسي المتقطع .

وفي الساعة السادسة توقف الصباح . توقف تماما عن أن يكون صباحا أو ليلا أو ظهرا أو عصرا ، وسمعت صوتا يعلو : هذا يوم الحشر . ومع ذلك لم يكن هذا الاعلان ينطوي على أية غرابة . فقد لاحظت ، مع شيء من الدهشة، أن ذلك الصباح كان زمنا لم نألفه ، ولم أعش أو أشاهد صباحا مثله في ما بعد . ففي ذلك الوقت هبت ريح دافئة ، ما لبثت أن تسخنت بعد قليل ، واهتاجت الزرازير (وعاد الصوت يعلو : هذا يوم الحشر) ، والعصافير وطيور الفاخت والغربان ، وقوق الدجاج وصرخت الديكة ، وبدأت ارتال الهوام واسراب الديدان تبرز من شقوق جدر الغرف المبنية بالآجر غير المفخور ، ثم ظهرت حية سوداء الظهر بيضاء البطن في بيتنا ، واختفت في الحال بعد أن وقفت على ذيلها، وبرزت الفئران من مخابئها في البيوت، أما في الضفة الغربية

من النهر ، الشاطيء الغربي منه ، فقد تكومت آلاف الفئران الملطخة بالطين تعترك . بينما كان دخان يتصاعد من بيت احمد العبدالله ... وحده كان أحمد العبدالله في البيت ، في مخدعه ، في الطابق الثاني ، يطل من كوة صغيرة على الشمس القادمة من الشرق ، ولم يكن جذلا ، كان ينظر الى البروزات المنحنية في الجدر الطينية والافق البعيد أقواس كبيرة وقويسات متناهية الصغر ، في سعف النخيل ، وأجنحة العصافير ودورات الهوام ، أفواه الاطفال وسورات المياه في النهر الذي يجاور بيته ، وكان يحس أنه قريب من هذا الذي يحدث كله ، وداهمته في الحال فكرة أخرى : انني امتلك معراجي وجواد الاعراج ، وتراجع قليلا الى الخلف فسمع الصوت الرقيق الناعم والحاد حد القتل ، ثم راى صورته في الغيمة الصباحية التي تسوقها الشمس البكر ، مترامية الاطراف ، مترفعة حد الكبر ، ومرتفعة حتى لا يمكن أن تطال ، وقال : ذلك هو قلبي ، لا شيء أكثر أولوية من القلب ، حتى ان العقل يبدو منفذا كريما ، يتطلبه هذا العضو الصغير ، ثم مرق البراق من امام عينيه ، كان مسرجا وحاضرا للعروج ، مترفعا في مشيته الهادئة الواثقة ـ لا ، لم يكن يمشي ، كان ينساب رقيقا وناعما .. وجود أثيري : هوذا معراجي لانني تطابقت اذ نظرت الى عيني بقلبي ، ولم تكن نفسي لوامة ، فهي الآن مع الغيمة ، لطيفة بلا حركات ، شاردة لكنها تقترب من الارض ، لم يلتم فوق ظهرها غبار ، منطوية على هذا الاحتواء للفرح والسعادة . ورافقته الفكرة ، غير أنه لام نفسه في الحال وقال : « يا رب الكافرين وربي » ولم يسمعه احد ، كان الصباح يسوق الغيمة الى حيث تقابل كوته ، غيمة بيضاء تدور حول نفسها ، كما لو أنها تتمزق ، فتنجذب الى الداخل والخارج ، الى اعلى واسفل ، وكان قلبها في الوسط يعترك مع اطرافها السائبة ، ولم يكن أحمد العبدالله أرضيا بما فيه الكفاية كان يلمس ارضيته في تلك الهجرات الليلية الى بيت ملكة فيلقاها تطرق ساهمة فاتحة زيق ثوبها ليظهر ثدياها ، فترفع اليه عينين ساهمتين، وتقوم على قدمين واهنتين ، فيطيل النظر اليها ـ لا ، لم يكن ينظرها ، انه يعيد هذا الشخوص الجسدي لامراة في الاربعين ، تمدد على يمينها ويسارها رجال جاءوا يسعون من اقاصي المدينة ، فناموا بعد أن ضربهم سوط المخدر . ولم تكن شجاعتها كافية للمخاطبة . وفي مثل هذا الموقف تتقدم اليه ، تطلق صوتا اشبه بالبكاء لكنه ينم عن ترحيب ، وتقبل يده ، فيكاد يقع على وجهه من شدة الارتجاف ـ كنت رائحة الافيون تعبق في كل زوايا البيت وحجراته الثلاث حيث الفتيات يتضاحكن ، ويعوي رجال أو يمشون على الاربعة ، أو يصمت البعض منهم ، مقلوب العينين ، بينما كان آخرون ، وهؤلاء قلة ، ينامون عراة على أرض مرشوشة بالماء . كان يعرف طعم الفترة التي تتوسط الصحو والخدر ـ تلك اللحظة الفريدة التي تجعل النفس تمتلىء وعيا وشجاعة

ولوما ، وكان يعرف ان هؤلاء الرجال الفقراء ـ لم يكن ليئم بيت ملكة الا الفقراء ، فقد كان للاغنياء والسراة بيوت خاصة للهو وتناول الحشيش وممارسة اللواط والقصف ـ ينعمون بسكينة مؤقتة ، سكينة يشترونها بالعرق والعمل الفائض والخبز الكفاف . الا أنه وهو الذي ينسى نفسه اذ يشم رائحة الافيون ، يضع كفه اليمنى تحت ذقنها ، ويرفع رأسها اليه بطيئا ، لينظر في عينين حزينتين برغم الكحل الذي يسخم أسفل الاجفان ، ووجه حفرته المساحيق الشعبية ، فيهم ألا يقول لها شيئا ، بيد انه اذ يرى السحائب مبعثرات في سماوة الوجه المحفور ، يبرك على الارض ، حتى يلامس قدمي ملكة ثم يقبلها واحدة بعد الاخرى ، وهي واقفة لا تدري ماذا تفعل ، وهي تسمعه يقول « يا رب .. » فترتعد . تعثمت ، أول الامر ، انه يمزح أول مرة ، دخل البيت فهربت الفتيات ، ولاذ الصاحون من الرجال بالفرار ، بينما استقبلته نصف مبتسمة . تصورت أنها تحلم ، فداخت ، ودارت بها أرضية الغرفة وسقفها ، لكنه امسك بها من كتفيها الواهنتين ، واستدار بكامل جسدها نحو القبلة وقال : تلك هي الكعبة ، هيا امسكيها يا ملكة ، وأخذ يجمهما دفعا خفيفا أمامه ، وكنت تصرخ : سيدي .. انها تتقدم الي وليس أنا التي أتقدم . وأما توقفت استدارت اليه ، فرأت دمعا في عينيه ، وتغضن وجهه مثل حبة عنب مجففة . ولم يشعر احمد العبدالله بأي دفء ، وكانت ماكة أمامه مأخوذة بهذا الحضور المفاجيء ، ومرتبكة من هول الذي حدث الآن ، الا أن ارتباكها ازداد كثيرا عندما رأته يخر على قدميها ويندفع يقبلهما ويقول : «يا رب الخطاة .. يا ربي ..» هبني القدرة على الحياة مع القتلة » ثم ران صمت كثيف على الغرفة ، وكانت فتيات الدار ينظرن الى سيدتهن، عارية الصدر، تنحني على أحمد العبدالله الذي كان يصرخ مستغيثا، في حين كان الرجال المسطولون ينامون بدون حراس ... أما في الشارع ، خلف البيت ، فقد كان الاطفال يصرخون .. وكان ثمة صوت ندب وعويل .. وسمعت صراخا في البيوت المجاورة . ولما استعلمت من أمي عن سبب الصراخ قالت غير معنية « عمل سنوان .. طفل تقنفذ » ولم أعبأ بما قالته ، ودفعت بجسدي خارج البيت . كان كثير من الاطفال يصرخون ويشيرون الى السماء ، في حين كانت السنة اللهب تخبوا رويدا رويدا في التنانير ، وفي الفضاء الصباحي أسراب خفافيش وبوم وحدآت تسرع في اتجاه الغرب ، تزعق وتصفق بأجنحتها ، ثم ظهر جسيم غريب في فضاء المدينة .

كان محورا ، ومثل كرة اللعب الكبيرة ، بهالة حمراء تحيط به ، وأزيز خفيف لكنه حاد ، أخذ يفرخ جسيمات أصغر منه ، وسمعت نفيرا من عند الثكنة ، فعلمت أن الجنود يستعدون لامر ما . بعد ذلك تحولت السماء الى اون بني خفيف ، وكان الجو شديها وقت الفجر ، وأصدرت الكريات النارية

أصواتا غير مفهومة ، ثم أخذ يصل الينا صوت ضعيف ، ارتفع قليلا قليلا ، صوت ناعم ورقيق ، لكنه واضح جدا : استسلموا . وفي الحال ارتفعت حرارة الجو . كان العرق يتصبب من أجسادنا ، وكنا نهزول والرصاص يتساقط علينا ، رصص كثيف ، وصوت رقيق ناعم وحاد حد القتل لا ينبي يكرر الامر : استسلموا .. و .. اختض احمد العبدالله . كنت اسير الى جانبه ، وملكه في الجانب الآخر من الشارع ، تتعكز على عصا خيزران ، لم يكن معها أي رفيق ، وحيدة وتطرق برأسها الى الاسفل ، بينما كانت « سالمة » تبتعد عنها عدة أمتار دون أن تنظر اليها . ثم اخترقت ضوضاء الموكب صرخة ناعمة ورقيقة، كانت سريعة الى الحد الذي توهمت انني لم اسمع أي صوت ، وسطع في نقطة بعيدة من السماء لون فضي ، أخذ يتفتت ، وتنفلت من ذيله السائب الطويل ألوان منشورية ، وهناك كان الانين المحبوس . رأيت احمد العبدالله يطيل النظر الى السماء الصافية . كان كل شيء بهيجا في الاعلى ، الا الارض ، فقد كانت مبتهجة بذلك العويل والنحب والصراخ . ورغم أن صوت ملكة كان شجيا وأنيسا حتى عندما تندب ، فان احمد العبدالله ظن أن الصوت الرقيق الناعم يأتيه من جانبها ، فحدق فيها ، وما ازال أتوهم أنه رفع كفه لها ، ثم لم سكتت استمرّ الانين المحبوس . كان الانين يتضح الآن ، ويغمر فضاء المدينة والموكب التقليدي . وسألت نفسي : أي معذب يطلق مثل هذا الصوت المفجوع ؟ وحجب عني الفضاء السماوي الاجابة ، فالالوان المنشورية اتخذت شكل الموكب ، وكان هناك أناس بقامات طويلة وقصيرة ، هياكل عظمية ملفعة بأغطية حمر وزرق وبيض بعضها يشتعل بنيران تتذاوب لتتخذ أشكال حيات وأجساد خرافية ، وكان ثمة من ينقر الدفوف ويدق على الطبول ، وكان من يصرخ طلبا للنجدة أو يبكي للغفو والمغفرة، على أن الحراس الذين يسيرون على جانبي الموكب كانوا يتصرفون وكأن كل ذلك لا يعنيهم . كانوا طوال القامة ، ترتفع رماح فوق رؤوسهم ، بأحى طويلة تتدلى فوق صدورهم العارية ، وجدائل مضفورة تتسرب من جانبي الرأس وخلفه حتى أخمص اقدامهم ، ومن البعيد كان يأتي صوت النفير فيتجه موكب الهياكل العظمية الى مصدره المجهول . في تلك اللحظات اكتشفت أن احمد العبدالله ينظر الى الاعلى أيضا . كان وجهه الاسمر يلتمع في وهج المصابيح النفطية ، ولاحظت عرقا غزيرا يتصبب من جبهته وجسده يرتعش من اعلاه الى ادناه ، لكنه داوم النظر الى السماء ، كما لو أن النفير كان يستدعيه شخصيا ، ولانني صوبت اليه نظري وعقلي كلية ، حسبت نفسي أتخيل ذلك الذي رأيته ، بيد أن الانين المفجوع دخل سمعي دون مواربة بينما كنت ـ بحواسي كلها ـ متجها لمراقبة المشهد ، ثم أحسست بعد ذلك ، بما يمكن أن اسميه خبالا فجائيا تابسني ، فقد سمعت أحمد العبدالله يرفع عقيرته بالنداء كما لو كان

في أعلى ذرى الطرب والانشراح « يا هذا الذي لا تطاله المعرفة .. يفتح الشدق .. ويتباعد الشدقان .. العوز الثاري يحولني الى واحد ، وانت الواحد، فلا اجد الجواب بوحدتي ووحدانيتك ، ولا بقوة الحق ، لانك خارج الاجتهاد ». وكان الموكب يواصل تقليده السنوي . الندابون كثرة ، وعويل النساء يتصاعد ولا أحد يعرف الذي يتم في الاعلى . ومع أن أحمد العبدالله استمر يردد « يا عوزي الثاري » لم يكن ثمة أحد يسمعه .

واذ ذاك أدركت أن لا بد من صرخة مني توقظ الموكب . وحاولت . لكن فمي بقي مغلقا ، رظل صوتي لا يطاوعني . لقد اقفل على باب كل شيء الا باب المشاهدة ، فدنوت من أحمد العبدالله الذي قال لي راعشا « يا ابراهيم .. يا بني .. زملني .. فالجرس يدق » القيت كوفيتي البيضاء على جسده ، وفي الارض يتصاعد الصراخ ، وفي السماء كان ثمة صوت النفير ، وغيوم بيضاء مثل ندف ثلج ربيعي تتموج تحت موكب الهياكل العظمية، والانين يتصاعد منه

فجأة خر أحمد العبدالله الى الارض يتلوى ويعيط « يا عوزي .. يا قوس الدائرة الناقص » كان البعض يتفرج ، وكان آخرون قد غادرتهم شجاعة الاقتراب منه ، كان جسده الذي تتقرب برتعش مثل فرخ مبلل ، وتعفر وجهه بالغبار ، الا ملكة التي اخترقت الموكب ، تستند الى عصاها ، ففسح لها الندابون طريقا ، حتى اذا ما وصلت اليه جاست على ركبتيها ولمست جبهته المتعرقة بأصابعها البيضاء التي خلت الآن من أي خاتم ، واستمرت جالسة اليه ، وهي تحدثه في أذنيه مباشرة والجسد يكف عن الارتعاش ، حتى اذا ما هدأ نهائيا رفع اليها رأسا متعفرا بالتراب وسألها خافتا : « ملكة ، هل سمعت صوت الجرس ؟ » وأرادت أن تقول شيئا .. لم نكن جبناء ، ولم يكن جنودنا يقبلون هذه الخلة ، غير انهم اخذوا في هذه المعركة غير المألوفة ، ففضل كثيرون منهم رمي أسلحتهم على الارض والالتحاق بالغرب ، حيث الخرائب والحشائش قصيرة السيقان ، مرورا بالجسر الذي يتقوس على النهر ، وايكون الاشارة الوحيدة الى الضفة الغربية ، كنا جميعا في الضفة الشرقية ، وكان الجانب الآخر لا يعنينا الا بكونه مكانا غير مأمون الجانب ، وقد يجعله ضريح (الم) آمنا ذات يوم . ومع ذلك اندفعنا نحو الغرب ، وكانت أضواء الكورنيش مشتعلة ، نتعثر بصناديق العتاد وأكداس البنادق وعجلات المدافع وطناجير المياه وارزات الجنود وجثث البغال والجياد وكلاب الشرطة النافقة . وعبرنا الجسر فعلا ، واستدرت الى الخلف دون ارادة مني فشاهدت برج دائرة الاستعلامات الوطنية يطلق اشارات ضوئية باتجاه الكريات النارية ، والدخان يلفع الفضاء وروابي البيوت وأعمدة مانعات الصواعق ومنائر المساجد ، بينما امتثل الاطفال والنساء لامر الصوت الناعم الرقيق بملازمة البيوت أو الشوارع .

وما أن تجمعنا في شارع الضفة الغربية حتى داهمتنا فرق من النيران . كان ازيز النار وأصوات الصافرات مألوفة لدينا ، ففي السنوات الاخيرة، تكون المدينة قد اختارت الصمت طويلا ، بعد صوت الصافرة الاولى الذي ينطلق من برج دائرة الاستعلامات الوطنية، لتعود الحركة ثانية بعد الصافرة التالية، أما الآن فان أية شظية من أية رصاصة تصيب جسد أحدنا ترديه قتيلا في الحال ، ومع هذا كان الصوت الناعم الرقيق والحاد حد القتل يقول : استسلموا.

استسلمنا . انزوينا نحن الذين كا زمن حسن حظنا اننا لم نتعرف الى شظية في البيوت الطينية المجاورة ، وبين أشداق الجداول الصغيرة المنسية ، أو فوق الحشائش قصيرة السيقان ، وكان القتلى ، أمامي ، ينامون دون حراك ، على امتداد الاتساع الارضي ، فوق الطين الذي تتصاعد من الابخرة ، ونحن مستسلمون تماما لما قد يأتي .

الاستسلام هو شظف عيش المحارب ، واللحظة التي يكون فيها الانتحار عملا صائبا . غير أن أحدا لم ير رئيس دائرة الاستعلامات الوطنية يظهر من بوابتها الانبوبية الكبيرة ، كما لم نشاهد أيا من رجاله في تلك الجموع التي هرعت الى الضفة الغربية ، لقد ذابوا راسا في امكنة لا نعرفها ، غير أننا سمعنا الصوت الرقيق الناعم ينادي : « على رجال دائرة الاستعلامات الوطنية الالتحاق فورا بمقر عملهم » ومع انتهاء هذا الامر مباشرة جاء الحدث المفاجيء .

توقفت الكرات النارية في الفضاء وانقطعت أصوات الازيز ، وفتحت منها أبواب فجوات صغيرة، تبعها نزول رجال بشعي الهيأة، أحاطوا بنا من كل جانب .

كانوا مخلوقات تكاد أن تكون آدمية . يرتدون ملابس خاكية مرقطة خضراء تميل الى اللون البني ، وبأحذية من جلد ذي لون أسود ، ثم تبعتهم مخاليق قصار القامة ، يعلقون مدافع أوتوماتيكية على أكتافهم ، أخذوا يتوزعون أمكنتهم في الاتساع الارضي كما لو أنهم خبروا المنطقة الغربية من قبل . والآن بعد هذه السنوات التي مرت على الغزو ، حيث يتحتم علي ذكر كل الحقيقة ، أستطيع أن أعرف مغزى تحذيرات أحمد العبدالله . لقد كان يعرف ان ثمة مدنا أخرى تدفع الارض باتجاه مدينتنا ، في حين كنا جميعا لا نطيق أي حديث عن الغرباء الذين سيقدمون ، كما قال أحمد العبدالله ، وينامون حتى في مخادعنا الزوجية ، فقد حرمت دائرة الاستعلامات الوطنية أي حديث عن الغرباء الذين كان يتوقعهم أحمد العبدالله ، وعرفت في تلك اللحظة لماذا تنازل العريف عن رتبته العسكرية .. ولماذا انحشرت معه وأحمد العبدالله في تلك الخربة . لم نكن نستسلم ، لاننا لم نحارب أصلا ، أو لم تكن ثمة حرب البتة . كنا نصادر ونساق مثل قطيع غنم الى المسلخ . كان الاحياء

يعرفون موقع السجن القديم ، فتقدموا اليه كأنهم منومون ، أما الاموات فقد استراحوا من عناء ما عانيناه فيما بعد .

وكنت واحدا من هؤلاء الذين لم يستريحوا .

وايام السجن ليامنا ، لاننا اخترناها ، أو لانها تحولت الى اختيار . ويصعب كثيرا على أي واحد منا أن يفرق بين الغزو وبين السجن . على أنني سأظل أتذكر ما قاله أحمد العبدالله بعد يومين من وصولنا الى السجن : اليوم يبدأ عذابنا الجديد . وكان عذابنا القديم ينطوي على الماضي بكونه ماضيا تكلس في الذاكرة ، أو في اكثر الاجزاء ايغالا في مخدعاتها . ان كل واحد من أبناء المدينة ابتدأ يتشكل مع هذا العذاب دون أن يتيح لنفسه فرصة المصارحة . وكان الحرفيون وأصحاب الدكاكين يقفلون أبواب محالهم قبل مغيب الشمس بساعتين ، فقد قالت دائرة الاستعلامات الوطنية أن شبكة من انصار وليد الاحمد بدأوا يعيدون ترتيب ذاكرة اولئك المواطنين .. وعندما ظهرت ذات صباح عبارة « يا عمال مدينة لام اتحدوا » اضطربت دائرة الاستعلامات الوطنية ، وأصدرت على الفور أوامر تقضي باقفال المصالح قبل مغيب الشمس بساعتين . حتى الرعاة أخذوا يعودون من المزارع الى ضواحي المدينة في ذلك الوقت ، بينما عززت الحراسات الليلية في الازقة والشوارع والسوق المركزي في البلدة . وكان على أصحاب البيوت أن يقفلوا أبوابهم ـ من الداخل ـ بأكثر من رتاج ، بعد أن أيدت دائرة الاستعلامات الوطنية أن هذا ضروري لحصر أولئك الذين يظهرون في الظلام ويكتبون على الجدران شعارات معادية . ولم يقل أحمد العبدالله شيئا بعد أن قرأ التعميم ، سوى أنه رفع بصره الى الاعلى وقال : مدينة المؤسسات الغامضة آفلة ، وان الله لا يحب الآفلين ، وبعد ذلك ، عند ما اختفى وليد الاحمد بصورة غامضة قرأت في النشرة اليومية التي تصدرها دائرة الاستعلامات الوطنية ما يلي : « ثبت للدوائر المسؤولة أن وليد الاحمد العبدالله آل الم يقوم بأعمال تخريب ، ويدعو الى عصيان أولي الامر ، ويعمل على تخريب المعتقدات والآراء الحميدة ، لذلك قررت دائرة الاستعلامات الوطنية وضعه في المحتجز الخاص بذوي الميول الهدامة ، ليكون عبرة لغيره ، وليعلم الجميع أن مصلحة المدينة فوق أي اعتبار » . لم يعلق أحمد العبدالله بأية كلمة بعد أن قرأ الخبر ، بل ذهب الى مسجد المدينة مباشرة ، وجمع حطبا أشعل فيه النيران ، وظل هناك في الباحة ، ينظر الى خشب السدر الاخضر الذي يعاند الاحتراق وهو يردد بصوت مسموع « أيها العصف .. أيتها الطيور الابابيل » ، ثم عندما التقاني عند رقبة الجسر ، في الظهيرة ذاتها ، رأيت زبدا حول براطمه وخاطبني غاضبا : « إبراهيم .. أما زلت لا تفهم ، لقد اقترب الانتقام » واستمر يمشي خطوات، توقف بعدها واستدار الي، شاهدت دمعة تلمع في عينيه ،دمعة مكابرة ومتكبرة،

وقال « لماذا يحدث هذا .. اليوم مع وليد وغدا مع سالمة .. وبعده تعم الفوضى المدينة .. يا ابراهيم ان هذا كله في سجل محفوظ » . وتيقنت في تلك اللحظة ، أن الفرصة باتت سانحة ، لان نتعرف على بعضنا كثيرا ، لذلك سرت الى جانبه . كان النهر أمامنا يرتفع ونحن نتجه الى بيته ، وظل صامتا ، لكنه كان محتدما ، وهكذا ابتدأت الحديث .

ـ قد يكون وليد على غير حق .
ـ لكن الدائرة ليست على حق فيما أرى .
ـ قد يكون ما تقوله صحيحا .
ـ يدعو وليد الى جنة أرضية
ـ هذا شأنه .
ـ وهذا مشاركة لله في أمور خلقه
ـ ومن قال ان الله يرفض هذا ؟
ـ ثم انه ينزل الله الى الارض ، أو أنه يلغيه

انتفض في وجهي :

ـ انت تقول هذا الكلام .. كيف تبيح لنفسك أن تنطوي على هذه القذارة ؟

قلت :

ـ يا سيدي أنا أسأل فقط ، ربما لا أفهم
ـ لا .. أنت تعرف ، تعرف كل شيء

توقفت فتوقف هو أيضا فقلت :

ـ وليد يقول ان الانسان هو الله

قال متأففا :

ـ وماذا في ذلك .. تريد أن تكون الله ، اذن اسمع ..

كف شعر رأسي ، وأخذ كياني يرتعش بأكمله ، وقلت في ذاتي : ان الولد يطور أفكار أبيه . ان (الم) تتكلم في صوت أحمد العبدالله ، ووليد يختزن كل تلك الذاكرة التاريخية من الهجرات والحروب وانتقاد العدالة . كان ينظر الى ، وكأنه يريد أن يقول : أتريد أن تسمع ، فقلت :

ـ اني اسمع يا سيدي .
ـ هل رأيت الله ؟
ـ لا يا سيدي
ـ لا تقل سيدي .. الله هو السيد فقط .
ـ قبل لحظات قلت : الانسان هو الله
ـ وأكرر هذا عليك اليوم وفي كل وقت .. ان المسألة أبسط من البساطة. الله هو الخير والعدالة والسلام والمحبة والصدق . كن هذه كلها تنطق باسم

اله ، أي تكـونـــه .

كنا قد وصلنا الى بيته ، فطرق الباب سريعا ، فجاء صوت سالمة من الداخل واهنا : من ؟ قال أحمد العبدالله ..

ـ اللـــه !

وكان هذا جزءا من عذابي وعذاب وليد وسالمة واحمد العبدالله ، لقد كنا نبحث عن الله ، كل بطريقته الخاصة ، وحتى في تلك الايام المرعبة ايام كنا في الخرائب فان فكرة وجود الله لم تفارقني لحظة، غير أنني تطيرت **مما قاله لي** أحمد العبدالله ، وان كنت وافقته ، فالفكرة على بساطتها تربك أي انسان حقيقي .. ومما زاد في ارتباكي دخول ثلاثة رجال من بوابة الخربـــة التـــي التجأنا اليها . كانوا جنودنا . تعرفت عليهم من بقايا احذيتهم ووجوههم الصفراء المزرقة . دخلوا علينا صامتين يجللهم الخوف واليأس ، ولم يرفعوا اصبعا بتحية ، انما نظروا الينا من عيون لا تطرف ، كا نأحدهـــم شابـــا لا يتجاوز التاسعة عشرة يرسل الى نظرة من قارب على الاحتضار ، كـــانت شفتاه يابستين ، وخيل الى أنه يطلب ماء ، لكنه كان لا يستطيـــع التلفظ بحرف الميم . كان كالمنوم أو كمن يرى طائر الموت يصفع عينيه بجناحيه الاقويين . أما رفيقاه فتوجها الى الحائط مباشرة واسندا اليه ظهريهما . ثـــم تراصف الى جانبهما الجندي ابن التسعة عشرة .

في تلك الهنيهة لم يتسن لي أن أجيب على تساؤل داهمني على حيـــن غرة : كيف اهتدى الثلاثة الى هذا المكان .. ومن هي القوة التي دفعت بهم الى خربتنا هذه ؟ أتكون تلك القوة القاتلة أم الله ؟ بيد أن الوضع كان مبهضا لأي جواب ، فقد توقف في البوابة أحد الغزاة شاهرا سلاحه الاوتوماتيكـــي لم يكن رجلا . انه الموت ، وفي تلك اللحظة فكرت ثانية : ماذا يجب أن أفعل ؟ ان الحياة تكاد أن تكون تافهة أحيانا ، ولكن أي شيء يعادلها اذا ما انتويت فقدها ؟ لم أكن أفكر في الانتحار البتة ، كنت راسيا في قارب الطمانينة ، ان كل شيء ، في هذه الخربة وخارجها ، يعيد ترتيب قدراته : القتلـــة الذيـــن يكيفون الغزو لانتصار الجريمة ، والضحايا المنهمكون في الصمت أو في الحوار المستديم مع النفس . لم أكن أفكر في أية مشاعر بطولية ، وكانت الاجساد التي تجاورني تخضني الآن أكثر من اي وقت مضى ، ربما يمتثـــل أحمـــد العبدالله لتاريخ أجداده في الموت البطولي ، ربما يكون اللحظة أكثر مني على معاينة فعل القتل ، بيد أن الجنود الثلاثة يتعرفون الآن على ادق تفاصيلي ، لقد وحدنا الموت في هذا الزمن الذي لا نستطيع قياسه ، كنـــا نـــرتجف ، وانخلعت قلوبنا من داخل صدورنا ، لكن اقدامنا كانت على الارض ، ورؤوسنا تمتد نحو السماء ، وتلك هي الخصلة الحميدة في هذا الموت الذي نحياه الآن ، اننا نتساوى في حضرته ونستطيع التخاطب معه بلغة لا يفهمهـــا الغـــزاة

والقتلة ، بل انني في تلك اللحظة ، وأنا استغرق في الصمت ، اكتشفت عائلة العريف الذي تنازل عن شاراته الثلاث ، كامل عامل طابوق في فتوته ، رأى في الجندية ملاذا أكثر أمنا لاطفاله بعد أن يموت أو يتقاعد ، وسمعته يفكر : « ضاع كل شيء » . أما الجندي ابن التاسعة عشرة ، فقد كان يودع الآن والدته ، كانت تقف في بوابة الخربة ، وقد اصطكت اسنانها من الهلع والخوف، امرأة بالعباءة السوداء ، حافية القدمين ، تمد اليه يدين راعشتين . بيد أنه لفرط خوفه لم يكن يراها ، كان منغمرا في الاحباط وفقدان الشباب ووداع أجمل لحظات الفتوة ، بينما هبط طائر الموت بكل جبروته على الجنديين الآخرين ، الذين كانا ينتحبان . وهذه هي حالة مدينتنا في الخرائب ، أو في تلك البيوت التي لم نقل لساكنيها وداعا ، فماذا يجب علي أن أفعل الآن ؟ ، ربما كانت مدينتنا النموذج المثالي للتفاهة ، وربما ـ أيضا ـ النموذج البطولي للموت ، ففي موكب صفر الحزين التقليدي ، تزدحم الشوارع والحواري والبيوت والمساجد ، بأضواء المصابيح النفطية ، وبالتماعات الخناجر والسيوف والبلطات ، والصدور العارية ، وثياب النساء السوداء ، ويقف الضاحكون الى جانب الباكين ، وينتشر الشحاذون بطرق ملفتة للنظر حقا ، وربما تتحول الشحاذة الى مأثرة مكرمة ومأثرة اجتماعية ما دامت ترتفق بالغفران واذلال النفس ، وعادة فان المدينة في شهر صفر تستورد ، دون ارادة منها ، أعدادا غفيرة من هؤلاء ، يأتون من مدن وبلدان قريبة وبعيدة ، يفترشون الازبال على الارصفة ، أو يتكدسون على الشاطيء الشرقي للنهر ، دون أن يجرأوا على الذهاب الى الضفة الغربية ، حيث يقع ضريح الم ، الا في الموكب التقليدي . وكان هذا التجمع الغريب لا يثير أية سخرية لدى وليد الاحمد ، كان ينظر اليهم ويقول متألما : سيعرف هؤلاء ذات يوم معنى أغلالهم غير المنظورة . ولكن اذا كان هؤلاء الغرباء يمدون أيديهم ويطلبون قطع نقد صغيرة أو هدايا عينية ، ولا يتورعون عن تناول فضلات الطعام ، فان جمهور مدينة « لام » الوطني ، من الاسر الموسرة وذوي الدخل المحدود أو ذوي العوز والفقراء ، يمدون أيديهم بطريقة مختلفة : انهم يشعرون بالعوز ، في شهر صفر بالذات ، فيتجولون في الازقة والشوارع ، من حارة الى حارة ، حتى ساعة متأخرة من الليل، طيلة الاحتفال السنوي الذي يستمر عشرة أيام، يبكون ويستعيدون أحداث غزوات سابقة ، يروون حكايات غريبة وخرافية ، ويجلس الغني لصق الفقير يستمعون الى محدثي السيرة . حتى رجال دائرة الاستعلامات الوطنية يظهرون في هذه المناسبة ، فيرتدون المعاطف الطويلة ، حيث الاسلحة تخفى بعناية ، وينسابون بين صفوف البكاء والندب والعويل ولطم الصدور ، لكنهم يظلون في حدود مهمتهم الاولى والاخيرة : الاغتياب المتواصل لكل مراطن وشحاذ وغريب . وفي آخر الليل ، عندما يعودون الى

مركز عملهم ، المحاط بالغموض والالغاز والحراسة المشددة ، يهرعون الى الأضابير ويدونون بدقة ودراية بالغتين ، كل ما لاحظوه وسمعوه ، لتقوم مجموعة ثانية فيما بعد ، بتقديم ملخص كامل بالمعلومات اليومية ، الى المسؤول الاول في الدائرة ، الذي لم يره أي من مواطني المدينة ، فيكتفي بمعاينتها في الغالب ، أو يهمش ملاحظات قصيرة على صفحات منه . ان دائرة الاستعلامات الوطنية ، في شهر صفر من كل سنة ، لا تعرف مقدما ماذا سيحدث . ورغم أن رئيسها المتكتم على شخصه شغوف بنظرية الاحتمالات ، يفاجأ جميع العاملين فيها بازدياد وكثرة الشحاذين عن السنة السابقة ، في حين يمتد بحر الصراخ والعياط والعويل والبكاء واللطم والندب والاضطواء والشحاذين والامتزاج النفسي بين الافراد ، طيلة الايام العشرة ، وبعد ذلك تعود المدينة الى هدوئها التقليدي ومراسيمها الحياتية اليومية .

وكنت لا أعاين هذه المناسبة الا في صياغتها النفسية المعلنة ، فأقول اوليد الاحمد : تستطيع أن تتكلم عن تغيير نمط عيش أبناء هذه المدينة . ان الكلام سهل ومريح . انت تريد العودة الى الحقيقة الاولى لانسان مدينة (لام) : العدالة ضمن المشاعية ، بيد أني أرى أن لا فائدة ، فان بناء القرون الطويلة، وسير الدهر المتصل ، لا يمكن أن يتيح التغيير الذي تنشده بمراسيم اشتراعية . ان المدينة تكتشف سجنها الآن ، في هذا الطقس عندما تمارسه، باعتباره صياغة جديدة للحرية . اننا غالبا ما نلجأ الى الماضي لانه التعويض الممكن عن الحرية المفقودة في الوقت الحاضر ، وأنا لا استطيع أن أتحدث عن الحرية دون أن أتذكر السجن أو اقترب منه، وربما يستطيع والدك تقديم تفسير آخر فيقول : هذه فلسفة أرضية ، تكونت بفعل العوامل الارضية ذاتها ، لان الخطأ والصواب ليسا نتاج المجتمع الطبقي وحده ، وسيظل وليد يحلم بمساواة أرضية غير مؤكدة ان لم أقل انها وهم ، وكما ترى فان في ما يقوله أبوك شيء من الصحة ، ومن يدري ، فلعلنا في هذا الطقس السنوي نكون بين الحرية والسجن ، دون القدرة على معرفة الاختيار الضروري .

غير أن وليد يحاول أن يعلمني بأنني حالم : انت كاتب تستطيع احداث تراصف جميل بين كلمة وأخرى ، مثلما يستطيع رسام ماهر أن يوجد علاقة من حسن جوار بين لون ولون ليكتمل بعد ذلك شيء تسمونه اللوحة الفنية ، ليست هذه هي افكاري بالضرورة ، ولكن الامثلة قد تكون نافعة ، ان المدينة أية مدينة، كما هي حال مدينتنا، حيوان ارضي افتقد البراءة . وهذا أمر يحدث خارجك رغم اتصاله بك في أكثر من وشيجة ظاهرة ومستورة ، فكل شيء يكبر سيكون على حساب شيء عداه ، والمدينة مؤسسة تضم عدة مؤسسات تبدأ بالفرد والعائلة وتنتهي بالدولة ، وباستمرار ، هناك صراع بين هذه المؤسسات ، ونمو عمودي وأفقي في مرافقها ، والحقيقة تكون مرادفة لهذا

النمو الذي يميل الى الانقسام والتبلور ، حتى يصل صيغتـه كما نـراه في مدينتنا ، ان الجذر الاول للعلاقات خلقه الصراع ، وأنت ـ وكذلك أنا ـ لا نستطيع نكران هذه الحقيقة ، واذا ما تطور هذا الشكل الاولى للعلاقات ، فانه سيفرخ أدواته التي انتهت الى الدائرة الوطنية للاستعلامات . هذه هي قصة المدن ، نمو وموت ، وحبل متواصل ، والحقيقة ذات وجهين .

ورأيت وجهه في نصف القمر الباهت ، فقد ابتعدنا عن مجموعات بشرية جاء تراكضة من أحد أطراف المدينة ، يصاحبها عويـل وزعيق وضربـات صنوج ، حتى اذا ما انتهينا الى ساحة ترابية كانت كانت منعرجاتها تخلق بركا من أضواء صفراء باهتة وسوداء كامدة ، استدار نحوي وقال بحـدة : الخلاص في تحطيم المجتمع الطبقي . ألا تعرف ما أريد ، ان الله ـ اذا كان عادلا حقا ـ سيقف معي فيما أريده . وافتكرت مع نفسي وتساءلت : ماذا يريد هذا النبي الارضي الصغير ؟ غير أنه تراجع في الحال عن حدته وقال لـي : مشكلتي أنني مهووس بالحرية .

ولا أدري لماذا تصورته ـ في تلك اللحظة ذاتها ـ يقرأ في كتاب مفتوح . ان ما تحدث به منطقي ، بل جميل حقا ، بيد أنني عجبت له كيف يفكر بتلك الطريقة وهو الذي جاء من صلب عائلة (الم) . ان بيت والده من أكبر بيوت المدينة ، وكلمته تسمع حتى في أروقة ودهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية . لقد عاش بيسر ورفاهية على خلافي وخلاف أقرانه . ثم اتيحت له تلك الفرصة التي ما كانت تتم الا بواسطة الموافقة الكاملة لكبار المسؤولين في دائـرة الاستعلامات الوطنية : مغادرة مدينة لام الى الخارج . قالوا : ذهب يطلب العلم . وقال والده : يكون الله في عون وليد .. ذهب ليعـود لنـا بالخيـر والطمانينة ، غير أنه عندما عاد ، بعد خمس سنوات ، لم يوافق على العمل في اية وظيفة . لقد رفض أن يكون حاكم البنك الوحيد في المدينة ، واستنكف أن يرى نفسه وسط مجموعة من أبناء الاسر الغنية في ثكنة المدينة . ومع ذلك كنت أحس به ميلا للعمل ، وأخبرني ذات يوم : قد أوافق اذا ما عرضوا على تدريس مادة التاريخ في المدرسة الدينية العليا ، ثم عاد وأكد : مادة التاريخ فقط . ومع التدريس ابتدأت مشكلته مع دائرة الاستعلامات الوطنية ، فقـد كان يقول لطلابه : ليس هذا تاريخنا ، انه تاريخ الجباة وكبـار القضـاة والعسس وأصحاب البريد وأدباء السلاطين وقصف الموالي وموبقات رجـال الحكم . وكانت تلك هي المنطقة المحرمة التـي لا تتهـاون فيهـا دائـرة الاستعلامات الوطنية مطلقا .

وكنت اعجب بهذا الذي يقوله ، وربما وافقته أحيانا ، على أنني فـي أحايين أخرى كنت أخبره : انت تنتقم من وضعك بأكمله ، ولربما تمتلك ذخيرة كبيرة من اضمار العداوة لابيك . ان ما تقوله ينطوي على نزعة تدميرية

هادئة . وكان يفرح لما أطرحه عليه ولا يغضب على عكس ما كان يفعله مع الآخرين . كان يقول لي : لا بأس ، انت متعلم والحوار معك غير مضر ، ثم انك ستجد نفسك الى جانبي وفي خطي ، فهم سيجبرونك على ذلك . وبعد سنوات ، عندما أخذ يجاهر بآرائه علنا ، عرفت أنه عول علي كثيرا ، فقد عمل مع عقله على تجنيدي في خليته الاولى .

قال لي بطريقته الهادئة التي لم تكن تفارقه : أرجو أن تلقاني في كوخنا، عند شريعة النهر . وعندما نقرت على الباب ودخلت الكوخ توقفت مندهشا أمام سالمة وشخص بلباس الجندية ، بينما كان وليد الاحمد يقتعد حصيرا من سعف النخيل . ابتسم في وجهي وتاملني كما لو كان يلقنني بداية الاسرار ، وقال : كل عمل يبدأ بسيطا ليكون مركبا فيما بعد ، محمد ابتدأ فردا ، واختار خديجة ثم عليا ، ونظر الى سالمة ، فردت نظرته هادئة مستريحة ، بعينين نجلاوين ، على أنني فهمت اشارته في الحال .

كان بين يديه كتاب مغلف بجاد أسود : لا قانون ثابت لدينا ، لدينا الحياة وانجازاتها . ثم تراجع الى الخلف وأسند ظهره الى جدار الكوخ ، فرأيته وسيما ، كانت ملابسه أنيقة وبسيطة ، واصابع كفيه ناعمة بيضاء وطويلة ، واظافره قصت بذوق وبردت بعناية ، وكان شعر راسه يتدلى ناعما على جبهة ضيقة ، تليها عينان سوداوان ، وفم صغير دقيق الشفتين ، وذقن مدببة . وكان في مجلسه أمامي يبدو مثل صقر ارتاح بعد طيران طويل وما يزال يبحث عن طريدته .. قال :

ـ تنقلب المعادلة

قلت :

ـ أية معادلة ؟

ـ معادلة هذه المدينة الناقصة .

كانت سالمة ترمقه بنظرات متفحصة بين آونة واخرى دون ان تتفوه بكلمة ، رغم أنها اتخذت هيأة التلميذ المطيع . بينما كان الجندي يبدو أقرب الى الضيق منه الى المشاركة ، ربما لانه استغرب وجودي بينهم . استمر وليد يقول :

ـ الحقيقة في هذه المدينة مقلوبة على رأسها .

فعلق الجندي متحمسا :

ـ وسنعيدها لتقف على رجليها الى الابد

تضايقت من تعليق الجندي ولم أبد ما يدل على ضيقي ، فعاد وليد الى الحديث مؤكدا :

ـ هذا عين الصواب ولكن كيف ؟

مد الجندي رقبته الطويلة نحو وليد ، وبنفس الحماسة تساءل :

ـ نعـم . مـا العمـل ؟

ومنذ الآن شطبت على الجندي . ولاحظت بأن وليد الاحمد يداري غضبا مخزونا في سره ، فها هو يريد أن يطلعني على خيرة من اصطفاهم ليفاجا بهذا الجندي المتحمس ، فاكد مرة ثانية :

ـ الحماسية جيدة .. ولكن من الضروري تهذيبها .

ارتحت في سري لما قاله ، على الاقل لانه لجم الجندي بأسلوب رقيق لا يخلو من العنف ، لكن الجندي الذي رأى عيني وليد تلومانه ، ارتج عليه الامر . وفكرت ، ان امعاءه الآن تتوى في داخله ، ثم أردت أن أقول كلاما لاقطع الصمت الذي ساد برهة ، غير أني عدلت في الحال ، بينما ظل وليد يرى الى سالمة ، وكأنه يستعجلها في الكلام .

رفعت اليه عينين نجلاوين وقالت كأنها تتحدى شيئا سريا ما يـزال يطويه وليد الاحمد في مكان ما من عقله :

ـ نعم ، ما العمل ؟ لنبدأ بأنفسنا .. أنفسنا نحن .. طريقنا فيما أرى ، هو طريق الانقلاب على النفس .

وسكتت فجأة ، ونظرت الي ، ثم انتبهت الى ما سيقوله وليد الاحمد ، وكأنها كانت تعرف مسبقا ماذا سيقول . ومن انطباق شفتيه بتلـك القـوة عرفت أنه لم يرتح كثيرا لما قالته سالمة ، فقد كانت في هذه النقطة بالذات تتقاطع مع الخيوط الجوهرية في كل أفكاره . ثم انها ، مع ابتسامـة خفيفـة ، استطـردت :

ـ لا شك ان وليد يوافقني في أن مدينتنا مقسمة ومجزأة . والسبب الجوهري في هذا كله يعود الى ابتعادها عن قيم جدها الكبير (الـم) . ولا أشك أيضا في أن كل واحد منا هو مدينة لام مصغرة . ومتى ما ابتدأنا في فحص النفس ، ووضعنا أصابعنا على مواطن الخلل فيها ، استطعنا أن نتقدم خطوة أولية على طريق تحرير المدينة وتوحيد أهلها .

غير أن الجندي قاطعها متهـورا :

ـ هـذا كـلام مثـالـي !

نظر اليه وليد الاحمد شزرا . وكدت اراه يقدم اليه ويأمره بترك المكان ، لكنه نثر علائم البشر على تقاطيع وجهه وأرخى ذراعيه ، وتحدث بصوت خافت كأنما كان يؤكد أفكاره لنفسه :

ـ هناك بعض وجاهة في رأي سالمة ، فالنفس ، ربما ، تعبير تجريدي . لا ، ليست مثالية ، هناك الموضوعي ، أولا وقبل كل شيء ، وكما يؤكـده التحقق المادي في الكون والمجتمع ، ثم يأتي بعد ذلك دور الذات . أنا أفرق بين الذات والنفس . الذات هي بداية الطريق الى الموضوعي ، اما النفس فهناك من يقول عنها انهـا لـوامـة .

وحدج سالمة بنظرة خاصة وقال :

ـ قد يكون هذا صحيحا من وجهة نظر أخرى ، لكن السوء يوجد في هذا الانقسام الاجتماعي . لا بد أن نعرف هذا جيدا . ان نفس سالمة خيرة جدا ، لذلك لا داعي للانقلاب عليها، ثم ان الضباط ليسوا هم الجنود.

رأيت الجندي يبتسم . بينما بقيت سالمة تنظر اليه في ابتسامة محايدة . كانت تعرف أفكاره مقدما ، وكان باءكانها أن تقول شيئا مضافا . وفعلا قالت :

ـ الانقسام الاجتماعي موجود في مدينتنا . وأنا لا أنكر الموضوعي ولا أغلب الذاتي عليه . انني بدقة أقول : ان تكوين مدينة لام تكوين تاريخي متميز ، انها تمتد من هنا حتى الكوفة والحجاز وسورية ومصر وتطوان .. وهذه المدن متشابهة في كثير من نواحي الاذلال والعسف والاضطهاد ، انها تواجه بالامحال الحضاري ، لذلك يبدو من الضروري ربط الانقسام الاجتماعي فيها بشيء آخر ، ربما أسميه : الصياغات المتناظرة بين لام وبقية المدن الشبيهة بها .

سكتت فجأة ، كما ابتدأت فجأة ، وتغضن وجه الجندي ، في حين كنت مأخوذا بطلاقتها ، لقد عبرت بعفوية ودقة عما كنت أريد قوله ، وكان وليد الاحمد يراقبها الآن كما لو أنه سيعلن بعد قليل خلافه معها ، غير أنها ، وهي تنظر الينا جميعا بحياء ، عرفت أنها قطعت آخر الخيوط بينها وبين ملكة ، وقلت في ذاتي : ها هي سالمة تضع حدا فاصلا بين طفولتها وصباها في ذلك البيت الذي لا تطفأ أنواره حتى الصباح ، انها تتفاهم مع وليد الاحمد بصيغة الاختلاف معه . لقد عاشت مع ملكة فترة طفولتها ، ولم يقل أحد انها ابنتها ، وعندما جاء بها أحمد العبد الله الى بيته كانت تعيش مع وليد الاحمد في البيت ذاته غير أنه من المستحيل كتمان مشاعر العاطفة ، ولم أكن لاشك في أن وليد الاحمد معجب بها .

وكانت تتفحصني في تلك الآونة . لقد ركزت على وجها جميلا مصنوعا بعناية فائقة ، كانت ترتدي ثوبا واحدا وتحيط رقبتها بسلسلة فضية ، وكان صدرها عاجيا ويكاد يلمع في ضوء الكوخ الخافت ، وعقصت شعرها في ضفيرة واحدة الى الخلف ، وكانت هناك حمرة خفيفة تشوب خديها ، ربما كان هذا بفعل خجلها أو احتدامها المستديم ، أو لانها شعرت بانني أتملاها بالطريقة التي تروقني ، ولم يكن الجندي يدري الذى يدور في قلبي ، كما أن وليد الاحمد غرق في تأملاته ، فخاطبت روحي مفكرا : « هل أنا أحب سالمة ؟ » وكان الرجل يجيب على أفكاري كما لو أنه عرف سؤالي في الحال ، كانت رائحة ما ، تشبه رائحة النوشادر والغفن تفوح منه ، وثمة مناطق حمراء عند

الرقبة ، قرب الابطين ، وفي مآقي العينين ، وكان وجهه المغطى بغلاف شفاف يشبه الزجاج الا انه معتم قليلا أو مضبب ، يظهر عينين مدورتين واسعتين ، وفما كبير الشفتين مرطبتين ، وأنفا بعد الحاجبين المحلوقين ، ليعلو قليلا قليلا ، وينتصب مثل خوخة تالفة فوق شفته العليا التي كانت ملساء أو محروقة .

كان متوسط الطول ، يغطي جسده بملابس شبيهة بالمطاط .. كان لا يتكلم ، مع أن نظراته تطلق أوامر لا تراجع فيها ، وكان الرشاش الاوتوماتيكي معلقا بكتفه بحزام جلدي ، وكفه اليسرى تقبض على سبطانة سلاحه ، وسبابة كفه اليمنى تلامس الزناد .

قالت عيناه : ارتصفوا

ارتصفنا . وقف أحمد العبد الله قبل الشاب ذي التاسعة عشرة ، فأمرته عينا الرجل أن يقف بين الجنديين ، وذهبت أنا الى الجانب الايسر ، الجانب الاخير ، ووقف العريف في مقدمة الصف يرتجف .

ولاحظت ارتجافا في شفة الرجل السفلى . كان يقف على مسافة خمسة أمتار منا ، في نقطة تماس نصفي الصف ، ومن هذا البعد حاولت أن أدقق فيه، فرأيت شعرا أسود قرب أذنيه ، كان شعرا قصيرا مسترسلا ولامعا . ولم نكن نعلم متى يضغط على الزناد وينتهي كل شيء .

وباغتني بنظرة من عينيه ، فابتعدت الى اليسار حتى لامست الجدار الايسر ، ثم أرسل نظراته الى بقية من في الصف ، فتحرك أحمد العبد الله باتجاه الجدار الايمن . كنا متقابلين ، وكان بامكاني أن أرى اللحظة جريدة سعف النخيل ، قرب قدمي ، وقد فقدت حيويتها في أن تكون سلاحا أو منشة لذباب ، ملهمة حد المبالغة ، لكنها وضعتني أمام ذلك الحضور الوبيل الذي لا يمكن أن يستشعره الا من يساق الى الاعدام ويقتل في الحال ، اليأس من النجدة ، وانتظار الآتي بصيغة القبول به . وتهيأ لي اني سمعت الجرس في داخلي يرد . ان هذه اللحظة وحدها تكفيني لادراك الصدع الذي يحيط عالمي . انني رجل أكاد أفتقد العداوة ، وكان شعوري بالاخوة هو الخيط الذي يربطني بالدين حولي قبل ان أصل هذا المكان ، غير أني كنت على وفاق مع نفسي حتى عندما أصبح بعد لحظات وجودا نافلا بدون قبر ، وهذا هو الذي اكسبني قدرة فحص يأسي : ان الاموات يتحدثون ، ان الجسد أكبر من أن تغادره خصائصه بعد رشه الاطلاقات ، وان بعض الزهور لتستحيي من الشمس أحيانا ، لكن عودة أحزمة الضوء اليها ترفع عنها نقاب الحزن ، فامتثلت الى قدري في أنني سأقبل الموت لانه لا خيار لي في الحياة ، في هذه اللحظة ، الا أن أموت . وللتو برقت في ذهني هذه الالماحة : ان الموت انطفاء مؤقت . انه الاحالة الثانية للحياة البشرية الارضية في صورة غير بشرية ولا أرضية ،

انه النوم المؤكد في حالة من الحام الدائم ، لذلك أيقنت أن أحمد العبدالله يجرب الآن مرونة أعضائه في تقبل الحياة الجديدة ، وشعرت أنني اقترب منه اكثر من أي وقت مضى .

كان أحمد العبدالله بقامته المديدة التي تشي عن ثوب مخرق ، في غياب عن هذا المشهد الذي لا يعنيه ، واقفا وظهره الى الحائط ، مسبلا ذراعيه عن هدوء وراحة بال ، الا لمعان في عينيه يصل درجة الاتقاد ، ولانني داومت النظر الى تلك العينين المتقدتين سمعته يقول لي مفكرا : هذه اللحظة ، كم سيكون شقاؤنا قاسيا اذا لم نعرها اهتمامنا .

قلت : انت تتحدث عن قضية . تعرف المدينة وبيت ملكة ، وأحلام وليد وغمرض سالمة ، أما أنا فقد كنتم مراقبا ، والآن أنا مراقب ، وبعد الآن ماذا سيبقى لي ؟ . « لا شيء » أدركت ذلك من نظرة خاطفة أرسلها نحوي الرجل المسلح ، في حين كانت جريدة سعف النخيل ، مطروحة فوق أرض الخربة المغطاة بالطين وروث الحيوانات، ثم نظرت الى أحمد العبدالله فوجدته يصلي ، أو يمارس رسما قريبا من أن يكون صلاة : كان يستدعي آباءه الاولين ، آباءه الذين تحولوا الى طين وهواء وماء وأصوات سرية في سوارت مياه النهر ورطب في عنوق النخل ، آباءه الذين نهضوا من الصحراء في ليلة مقمرة ، وخلفوا مضاربهم في ذلك الاوقيانوس الرملي ، وجاءوا الى هذه المدينة وبنوها طابوقة فوق طابوقة ، وهو يراهم يقبلون على خيولهم المطهمة ، يرفعون الغدادير ، وينحنون على أعراف الجياد التي أضناها لفح الرمل ، ثم يتوقفون قرب النهر بكامل ركبهم ، ويقف كبيرهم ، دون أن يرى نجمة الصباح ، فقد كان (الم) كفيفا ، فيرفع يديه الى الاعلى وينادي : باسمك اللهم ، ثم يخر ساجدا على الارض . وكان أحمد العبدالله ينظر الى الارض الآن ، وجسده يتموج خفيفا هادئا ، كجسد حية أسطورية تنهض من سبات دهري ، تتخلله رفسات صغيرة من أدق مكان في أظفر ابهامه حتى أدق شعرة في رموش عينيه . صلاة : الحياة اذ تبدأ تتكون . صلاة : الحياة اذ تقبل الانطفاء وتعاند الانطفاء . صلاة : الاستغراق في هذا اليأس الكامل دون أن تكون قادرا على التقاط شهقة قصيرة ، ولكنه التشبث في تلك اللحظة بكونها حياة لا ترتضي القسر . صلاة : كنظرته الى ملكة حين كانت غرغرتها الاخيرة ، الاعلان الاكثر تأكيدا على طي قيدها في السجلات الرسمية .. كانت ممددة على سرير حديدي ، ظهر الصدأ على قوائمه وحافاته ، فوق حشوة قطنية منخسفة في كثير من مواضعها ، توسد رأسها وسادة متسخة التصق عليها شعرها المفلفل ، وكانت عيناها متجهتين الى سقف الغرفة الاجرد الا من نتوءات بارزة هي بقايا جذع نخلة شطر الى أربعة أشطر ، وكالعادة كان البيت مضاء الا أنه خال تماما من الصخب والضجيج السابق . وعندما دلفت في

الدرابزون الذي يؤدي الى غرفتها شاهدت احمد العبد الله يجلس قريبا من راسها ويقطر لها ماء بملعقة شاي صغيرة ، كان جسده يرتعش ، وكنت أفكر أنه يرى صوته ، وكانت ملكة منفوخة البطن ، وبان ثدياها من تحت دشداشتها مثل بطيختين حائلتين ولا تستطيع ان تقول كلاما مفهوما ، انها تهمهم وتلغو ، وكان لسانها يلوب بطيئا داخل فمها المتيبس الشفتين ، وحاولت ازاء نظرات احمد العبدالله ، بعينين تغالبان الدمع ، أن ترفع احد ذراعيها فلم تستطع ، واكتفت برفع سبابة كفها اليمنى قليلا الى الاعلى ، فاشارت الى السقف الاجرد ، ثم عادت السبابة الى وضعها الاول المرتخي بارتجافة واضحة ، نظر احمد العبدالله الى الاعلى فلم يجد الا السقف الاجرد فوق رأسه ، وفي أحد اركانه ثمة « أبو بريص » يخرج لسانه الرفيع خارج فمه بسرعة ، وينظر بعينين محتقنتين الى ذبابة منزل كبيرة في وضع التجمد، بانت ابتسامة مرهقة على فمه ، وظرت عليه سمات الانشراح حتى خلت انه سيطلق صوتا ضاحا ، لكن « ملكة » لم تترك لنا فرصة تبادل حديث سريع لنكسر الصمت الذي يحيطنا ، فقد رفعت رأسها عن الوسادة قليلا ، فبان اصفرار وجهها في ضوء المصباح الشاحب ، مثل برتقالة تالفة ومتروكة ، كان ينز ماء ، على شكل بلورات دقيقة عند الانف والجبهة ، ثم اندفع سيل من ماء أسود من داخل جوفها الى خارج فمها . كان كثيفا كالدبس ، فسال على جانبي فمها واستقر قسم منه على الوسادة الزرقاء المتسخة ببقع حمراء وسوداء وصفراء ، وعادت تنظر الى السقف ، حيث أبو ابريص تمكن الآن من القبض على الذبابة المنزلية الكبيرة ، وكأنها تريد أن تقول شيئا ما ، وعند ذاك أدنى احمد العبدالله أذنيه من فمها . كانت تحرك شفتين مصبوغتين بقيء أسود كثيف ، وكان وجه أحمد العبدالله يبدو محتقنا في تلك اللحظة ، حتى انني تصورته سيعيط بأعلى صوته ، غير انه قال بصوت خافت : انا الآثم يا ملكة ، ثم رفع رأسه الي فشاهدت عينيه مغرورقتين بالدمع وقال : ماتت .

كنت بين مصدق ومكذب ، فقد كانت عيناها مفتوحتين ، وفمها مفتوحا، ولسانها يكاد يبرز من شفتيها الملطختين بالقيء الاسود ، وفي السقف كان أبو بريص يبتلع الذبابة المنزلية الكبيرة . واكتشفت انني وأحمد العبدالله وحيدان مع ملكة التي كانت كالنائمة تماما وهذا الصمت الذي سينطق بقوته وجبروته .

لم أكن أصدق الذى جرى ، فقد كنت أؤكد لوليد الاحمد أن ملكة لن تموت . صحيح انها في السنوات الثلاث الاخيرة هجرت من كل فتياتها ، لكنها كانت تبدو سعيدة . فلم تترك زينتها يوما واحدا ، واستمرت تجلس عند دكة باب بيتها المضاء باستمرار ساعات طويلة في كل مساء ترقب المارة ،

وتتلهى برسم خطوط ودوائر بعصاها الخيزران على التراب ، دون أن تنطق بكلمة واحدة ، بيد أن مرورا عابرا لاحمد العبد الله من أمامها كان يجعلها أكثر سعادة . انها تستوقفه أحيانا ، فيجلس قريبا منها ، فوق الارض المتربة ، ويطيل الانصات اليها ، وكان صوتها من الضعف والوهن بحيث يجعل أحمد العبدالله يدنو منها كثيرا . وفي احدى جلساته عندها لم يسعفها صوتها كثيرا فدنا منها أحمد العبدالله حتى كادا يتشابكان ، واذ ذاك رمت برأسها على كتفه وطفقت تنشج ، وسمعها أحد المارة تقول : كل شيء قبض الريح .

وعندما غادرت مهجعها ، لم يبق معها الا أحمد العبدالله والصمت وأبو بريص ، بينما تلقفتني ريح حارة في الازقة التي هومت فيها . وتذكرت ما قاله وايد الاحمد : هذه هي القاعدة : نولد لننمو ونكبر ثم نهرم ونموت . وشعرت بالتقزز من هذه الفكرة ، فقلت لوليد الاحمد : انت .. انت تقول هذه البشاعة ، ولم أقل له ان عدونا الوحيد هو الزمن ، وانه يختار لحظته ، كما يجددها بعيدا عنا ، ثم ينهمر بكل ثقله وجبروته على كل شيء . وكان الرصاص في الخربة ينهمر علينا من كل الجهات . كان الرجل المسلح يمسك مدفعه الرشاش بيده اليمنى ، ويرسم دوائر في الهواء ، ولم نكن لنعرف في أي جسد ستستقر احدى رصاصاته ، انه يرفع المدفع الصغير الاسود المدهون حتى ليلتمع ، الى الاعلى ، ويردد صوتا مبهما : « هذا قدركم » لم يكن صوتا بمعنى الهمهمة ، بل شيئا لا يمكن وصفه ، فهو بعد أن رنق عينيه أطلق تلك الاصوات . هل كان يترنم ؟ ، انه بالتأكيد يحيا أوج عاطفته ، في هذا الموت البطيء الذي يزحف ابتداء منه وانتهاء بنا . لقد كان يقول شيئا ما ، أشبه بتقارير موت لمن لا نراهم ، صوت كصوت من يستغرق في حالة تعبد ، مثل صوت الذي يتهدج ، مقرورا ، ترحا ، بهذا الاختفاء الكامل للحياة في حركة صغيرة ، ليست عابرة ، لكنها التعبير عن الموت ، أو الموت في حركة . ولذلك فانه كان يتموج ، خفيفا وهادئا ، عندما وجه ماسورة المدفع الرشاش ، بدءا من الحيطان الى الاعلى ، الى الاسفل ، وكنت أتنفس بصعوبة ، وأتحسس جفافا في لهاتي وحلقي ، وكان لساني مثل عظمة مهملة ، جافة وصلدة ومصعوقة .

وتوقف انهمار الرصاص ، أبصرت جسدي مسندا الى الجدار الايسر ، متشنجا ومتصلبا ، ذراعي على يمين ويسار الجدار ، وكان احمد العبدالله مصابا في يده اليمنى ، بيد أنه لبث في وقفته ، بينما برك العريف على ركبتيه متأوها ، وكان الجنديان جثتين هامدتين . أما الجندي ذو التاسعة عشرة فتقدم نحو الرجل المسلح صارخا : « من انت .. من انت ؟ » كان صوته فتيا وملتاعا ، خالطته الهبة ، ونظراته مثبتة في ماسورة المدفع الرشاش ، بينما كان الرجل المسلح ينظر اليه دون اكتراث ، ويتحرك خفيفا وهادئا مثل حية

أسطورية استيقظت للتو من سباتها الشتوي ، وصرخ الجندي الشاب مرة أخرى : « من أنت ؟ » . وفي عينيه المفتوحتين حد البأس والرعب ، كانت صورتي واضحة : آخر امارات الانكراب والخوف والبأس .

تراخت ذراع الرجل المسلح اليمنى ، وجسده الصغير الممتلىء ، استوى الآن مثل فقاعة بيضاء ضخمة ، وركل رأس الجندي الشاب واستدار الى الخلف بعد أن نظر الي والى أحمد العبدالله فتيقنت انه قال لنا « انتما متما أيضا »

فرض الموت حضوره الوبيل ، ليس لان الجثث الاربع حاضرة بما في الموت ذاته من انهمار وصمت ، بل لان الدخان كان يتمطى في جو الخربة ، وأصوات الاطلاقات النارية ما تزال تصل من الخرائب المجاورة ، والصوت الرقيق الناعم والدقيق حد القتل يأمر : استسلموا . ولم أكن سعيدا في عدم موتي ، كما أنني كنت مندهشا من كل هذا الذي حدث .

حسبت الامر مفارقة ، أو حلما كابوسيا ، غير أن الفجيعة كانت تعيد تركيب معنى المفارقة بشكل آخر ، والاحلام ، حتى الكوابيس منها ، كانت ممنوعة في هذا المكان ثم لاحظت جسد أحمد العبدالله يتراخى ليجلس على الارض ، ويلتقط جريدة سعف النخيل ويقبض عليها بيده اليمنى . « ماذا يريد ؟ » ولم أكن بحاجة الى أية اجابة ، فقد كان أمامي يشدد من قبضته على السعفة المجرودة ، ثم قالت لي نظراته « باتت الحياة زائدة بعد فراق الوجوه التي الفناها » ، ولم يكن وليد الاحمد معنا ، فقد وضعه رجال الاستعلامات الوطنية في مكان مجهول . وحدها سالمة ، كانت تستكين في تلك اللحظة . ورأيت عينيها تطلان علي من سماوة الخربة ، كانت حزينة ودامية بشداشتها الحمراء المشدودة على جسدها الناحل الفتي . وشعر رأسها يتطاير في الريح ، لم تكن تتكلم ، كانت تنظر الى أحمد العبدالله دون أية اشارة ، وتبادلني نظرات غاضبة . وسمعت أحمد العبدالله يقول بصوت خافت « يا ربي .. يا رب القتلة » . وقلت لنفسي : قد يبرر القتل ، ولكن أية جريمة أشد اجراما من القتل ذاته سيكون التبرير ؟ ويقول وليد الاحمد ، ينبغي أن لا تستغرب ، أرجع الاسود الى جذورها ، أو جذرها الواقعي ، وسترى أنك تستطيع النظر الى الاشياء بصورة صحيحة ، أو أنك ستراها كما ترى وجهك في مرآة صافية ، على أنني ، كنت وما أزال ، أرى أن استجواب القتلة ، واعادة تأليف تاريخ القتلى ، عملية لا تستجلب الطمأنينة . ويقول وليد الاحمد : الطمأنينة قرينة الدعة البورجوازية ، وانك بالاساس لا تمتلك شيئا لتفقده، ولا أحد يستطيع ـ حتى لو امتلك فظاظة رجال دائرة الاستعلامات الوطنية ـ ان يصادر أفكارك وانت تتحدث صامتا أو تفكر وانت صامت . ويقول أحمد العبد الله : : الطمأنينة هي الرذيلة بعينها . وتقول سالمة حين

لا تجد بدا من طرح أفكارها بهذه الجدية : الطمأنينة الى الماضي مغلوطة ، والمستقبل هو الحاضر في اطار التصور ، وانا أعاين نفسي بهذه الصورة ، ولا بد أن تعرف اننا في الحب وحده نضع أنفسنا في ذروة الطمأنينة غير البرجوازية ، ثم نبحث عن الفعل الذي يحمي هذا الحب . كيف نحمي هذا الحب ؟ . والحكاية ملخصة انني أرى تاريخي ، بكل ما انطوى عليه من قسوة وانهماك في الوحشية ، لاننا في النهاية ، لا نمتلك الا هذه الفضيلة . واعتقد أن مدينة (لام) وحدها هي القادرة ، من بين كل المدن ، على أن تتحدث عن الحب بلغة أكثر صفاء ، وكنت اقول ان الكتابة هي الاختراع المستديم ، والابراء المستمر للذاكرة . وفي ذلك المنعطف الخطير الذي لا يدركه كثير ممن يزاولون احتراف الكتابة ، المنعطف الذي يمثله أحمد العبدالله في انجذابه السماوي ـ الارضي . لا بد للكاتب ان يقول كلمته . وهي كلمة تتضمن الحب ، والكتابة حب حتى عند ما يكون على الروائي أن يفرى كل الدمامل في اكثر الجهات سرية من مناطق مدينته ، ويعيد ترتيب الخارطة الجغرافية النفسية لمدينة مثل مدينتنا المنكوبة ، لانه استجواب القتلة واعادة تأليف تاريخ القتلى ، عمل ينطوي على الحب . لكن قتلى مدينتنا لا يتحدثون ، ولا يوجد من يجرؤ على استجوابهم . ثم ان أي حديث جاد يكاد يكون محرما ، بعد أن أخذنا اتجاه السجن وصبحنا رئيس عرفاء السجانة بصبحته اليومية التقليدية : « ولد الفقراء .. مساكين .. كلكم سجانة ومساجين » .

.. وماذا يفعل السجين ؟

لا شيء ، وكل شيء ! وكنت أقول : السجين لا يغادر حريته ، ويرفض أي اجراء لاعطائه حياة مجتزأة في الدقيقة التي يدخل فيها بوابة السجن الرئيسية حيث يكون السور خلفه . وقد يوجد الاعتياد امحاء لاهم ما في الذاكرة من بروزات تقترن بالماضي ، لكن ثمة تشكلا جديدا لا بد أن يحدث ، وهذا ما كان يفزعني ، خصوصا عندما لاحظت التنميط اليومي لحياة السجن ، وكان علي في اليوم الاول أن أكون ضمن ذلك التنميط : الرياضة الصباحية ، العد التصاعدي ، الكوابيس النهارية ، أوقات تناول الطعام ، العلاقات غير المتكافئة ، التحكم بالآخرين من خلف زواغير السور وأبراج المراقبة . التقارير السرية للعملاء ، أو ـ وهذا هو الخطير جدا ـ اكساب السجن صفة المدينة ، وبالنسبة للآخر ، وخارج السجن غالبا . يظل هذا البناء الاصم مصدرا لكثير من الاوهام ، ولربما ـ وهذا ما حدث بعد ذلك ـ تستقر هذه الاوهام في رؤوس كثيرين ، لذلك لا يبدو شيء من غرابة ، عندما نتناول قدح الشاي المر ، في هدأة الليل وهسيس الصمت ، ثم يأتيك صوت مباغت هذه هي خمرة الثوريين ، أما عندما نريد امتصاص الزمن في قراءة ما اتفق ، فان تعليقا

مصنوعا مثل : السجن محطة مؤقتة للتثقيف ، قد يكسب وجهك مسحة من سخرية لاذعة ، مع أنه ينطوي على مخاتلة كبيرة ، وايهام أفظع للذات .

ان تحدي السجين هو الزمن ، أو هكذا خطر لي في السنتين الاوليين ، وكنت أتصور زمني عجينة هائلة ، عجينة من مخاط وقار وطين وأفيون وشذوذ وتمارض وادعاء حب وتفكير مستمر في التخطيط الذهني لجريمة منظمة ، وأنا اتلعبط في طياتها ، دون قدرة على تحديد ماذا يراد مني ، أو ماذا أريد أنا شخصيا . وهكذا اذ كنت أتذكر أيام الخرائب بكل قساوتها ، وذلك الخوف الذي سكنني ، وانا في تلك الزنزانة الطويلة مع خليط من ضعفاء أو نصف أقوياء ، أتمنى أن أعيد خيط الزمن من جديد ، الى الوزاء ، الى الوراء ، حتى اصل الى ذلك الصباح الشتوي ، بين الخرائب في المنطقة الغربية ، لاعلن في وجه أحد الغزاة : أيها الجبان .. أقدم ، فتستقر رصاصة عابرة من مدفعه الرشاش تحت ثديي الايسر وأستريح من هذا العناء . غير أن الرصاصة العابرة كانت من البطء الشديد بحيث انني كنت أراها قادمة طيلة تسع سنوات .. دون أن تطال الجزء الايسر من صدري .

وما أزال اعتقد أن ذلك الاحتمال المتوقع للموت ، أو اليأس منه ، لطول المسافة التي تقطعها الرصاصة وكأنها تسير في دائرة كونية لا حدود لها ، هو الذي قدم لي تلك الانتباهة الفريدة ذات يوم : انني استطيع أن أكون حرا اذا ما أردت حريتي ، حتى ولو كان ذلك في السجن ، بل ان فعل الحرية يكسبني تلك الشراسة في قبول البأس ، وكان أحمد العبدالله يراقبني وأنا أضع قدمي في أول هذه الطريق . الا أنه بعد السنة الخامسة ، لم يعد يهتم لاي سؤال أو جواب من ذلك الخليط النافر من الضعفاء وانصاف الاقوياء .

كان يشعل النار فقط ، في مكانه قرب الباب الرئيسي الذي يوصل الى حجرة الادارة ، حيث السور الحجري المتعالي والمتطاول ، يطل على مديات واسعة من رمال تغير مواقعها باستمرار ، وحيوانات دقيقة تهوم ليل نهار ، فوق رمال تصطلي بالحرارة نهارا ، وتبترد ليلا ، حتى انه في النهار المتلظي يديم اشعال النيران بالعاقول والعوسج وقشور الرمان والرقي والجرائد القديمة وجوارب السجناء المهترئة وملابسهم الداخلية المتروكة ، وغالبا ما كان يشحذ هياج النيران بجريدة سعف النخيل التي لم تفارقه . وفي ذلك الحين انقطعت عنا أخبار المدينة نهائيا . لكننا عرفنا بعد ذلك أن بيوتها ومرافقها قد هدت عن آخرها ، وأجبر الغزاة الاطفال والنساء على الرحيل فورا منها الى أية جهة يشاؤون . وفي وهج النيران رأيت أحمد العبدالله يفكر قليلا فعلمت أنه قرأ أفكاري . كانت جريدة السعف في يده وقد بان القصر في طولها واضحا وهو يلاعب نيرانه . وعندما أدار رأسه نحوي أدركت في الحال أنه يزاني ويرى سالمة ووليد والنملة البعيدة المتوحدة خلف السور .

ـ هذه هي الحالة يا سيدي .
أجاب هازا المجرودة في وجهي :
ـ أية حالة تعني ، ثم انني لست سيدك ؟
قلت متراصبا
ـ مدينة لام اندثرت
قال مبتسما بصوت يشبه البكـاء
ـ مدينة لام لن تندثر ، انها طحلبية
ـ ماذا تقـول ؟
أجـاب :
ـ هـرب وليـد مـن مكمنـه
ثم عاد الى نيرانه يلاعبها ، وخاطبني بصوت خفيض :
ـ لم تكن تعرف وليدا جيدا ، انه مثل طحلبة ، يتوزع الامكنة التي يؤيدها ، أو ان الامكنة تدعوه اليهـا .
ـ وسـالمـة ؟
نطقت اسمها دون ارادة مني . فعاينني من أسفل قدمي حتى رأسي ، ثم ركز بصره على أبعد نقطة في سماء تلك الظهيرة الصحراوية وقال :
ـ كنت أعرف . أنت تحبهـا .
ـ نعـم .
واستطرد بفـرح مفـاجيء :
ـ لو تدري ، انها تحبك .

كان ذلك مفاجأة لي . كنت في داخلي أضمر لها عاطفة خاصة ، نعم كنت أحبها وما أزال كذلك ، ان الامان المطلق يحضر معها اذ القاها في زقاق من أزقة المدينة ، أو تقف أمام بيت والدها ، اما الآن ، فان الامان الذي تحملـه يدخل قلبي كمدية من يترصدني طوال عمري ثم اذ تتيح له غفلتي فرصة أن يدس المدية من تحت ابطي الي القلب مباشرة ، يكون فعله القدري قد وضعني في موقع آخر ، لاقول : ان الشيء المبهم في نفس ذلك الكائن هو الذي دفعه الى اختيار فعله. ربما كنت افهم دوافع القتل عند كثيرين من القتلة. بيد أن تقبل سالمة لقتلها ، بتلك الطريقة الفذة الانسانية والرائعة ، كانت تنسف كل ما تعارف عليه أهل مدينـة « لام » : لقد دخل الى بيت احمد العبدالله أحد الغزاة فوجدها لوحدها ، وفي الحال انفرد بها في حوش البيت واغتصبها ، ثم خرج دون أن يقول كلمة . أما سالمة فقد بقيت في مكانها ساعة أو أكثر ، كما عرفت منها فيما بعد ، تنظر الى السماء ، متكئة الى حائط البيت ، لا تدري ماذا تقول . غير انها ، عندما كانت السماء تحترق ، خرجت الى شوارع المدينة وهي تصرخ : الاطفال ، عليكم بالاطفال . وبعد ذلك كنت في حالات من التمزق

عندما أفكر بذلك الطفل الذي ينمو في بطنها دون أن تعرف أباه لكنها تقبله . وكانت تبسط الموضوع كالآتي : لست مذنبة ، ان القتلة مغتصبون بالضرورة، كما أن الطفل لا علاقة له بكل ذلك الذي جرى ، فكيف اسقطه من رحمي أو أخنقه ؟ لا بد أن اربيه ، هذا هو رأيي . وكان وليد الاحمد لا يطيق حتى الاستماع الى هذه الفكرة ، ولكن لان الذي حدث حدث فعلا ، تصرف وكأن شيئا لم يحدث ، وأخذ يعيد تقييم سالمة بطريقة يختلف فيها معها اختلافا تاما . وقطع أحمد العبدالله صمتي قائلا :

ـ سالمة ، ليست ابنتي !

ـ كيف ؟

ـ هي من صلب ملكة فقط .

ولا أدري كيف وجدت نفسي أعود الى عدة سنوات ماضية لاكتشفها في لحظة قصيرة جدا فرأيتها في مكان لم أكن أعرفه في سنوات السجن ، تقبل على رائمة ذراعيها بينما السماء تعج بطيور التم ، غير ان احمد العبدالله تدخل في صمتي مرة أخرى ..

ـ رأيتها . أليس كذلك ؟

ـ نعم

ـ هذا حسن . لو أنك تستمر على تدريب نفسك ، فستراها معك الى الابد

ـ لا أفهم

ـ بالتأمل

ـ والطفل ؟

ـ ماذا ، هل مات ؟

ـ انه ثمرة ..

ـ محرمة .. أليس كذلك ؟

ـ لم اكن أقصد هذا

ـ اذن ماذا تقصد ؟

ـ لا شيء ، نعم لا شيء

بقيت انظر اليه ، وقلت في نفسي : انه مع ناره يرانا جميعا ، وليد وسالمة ومدينة لام وما أسميه بمستقبلي المجهول . ثم حرك النار فارتفعت ألسنتها ، ورأيته يمد كفيه بين اللهب ويبتسم

ـ النار ، ألا تحرق جلدك ؟

فقال مغرورق العينين :

ـ يا ابراهيم ما زال نصف مبصر ، كل شيء حولك يدعوك الى التعقل والابتعاد ، فحياة ملفقة ولغات أكثر تعقدا ، وانت سادر في تدوين

حيـاة هـذا السجـن .

قلـت :

ـ أكاد افقد ذاكرتي ، فقلت استعين بالتدوين

تساءل :

ـ وقلبـك ؟

ـ تبـا لـه

أربـد وجهـه :

ـ اياك من الغلط . هنا الغلط وحده ، عندما تقيم فاصلا بين عقلك وقلبك ودون أن يكمل استدار برأسه نحو سور السجن ، حيث تفرس في نقطة بداية الـظـلـل .

كان مبنى السجن مثل انتفاخ هائل ينبعج من ارض شديدة الانخساف ، وكان سوره المربع الذي يحيط بعشر ردهات ، قد كسي بطبقة زلقة من تراب مفخور حد التزابق ، ويبدو من الانخساف الارضي بشكل نبات الفطر ، ذلك النبات الاملح الذي يميل الى البياض قليلا والمر مثل ثمرة الصبـر . ومـن الرابية الشمالية التي تبعد عن المبنى قرابة ثلاثين ميلا ، يمكن مشاهـدة الدخان الذي يتصاعد من المطبخ مع أول الصباح ، غير أن السجن من الداخل ليس الا أرضا واسعة محاطة بسور مرتفع في حدود خمسة أمتار . وفي ردهاته العشر توزع السجناء أمكنتهم الخاصة : بطانية سوداء ووسادة تبن وملابس وصناديق صغيرة ، وفي كل ردهة يوجد مسؤول يشرف على مسؤولين أصغر منه ، وكان ثمة هيأة غير معروفة العدد تشرف على سير الامـور في داخلـه يخضع اليها السجناء جميعا. وفي كل يوم كنت أسمع عن تأليف لجنة جديدة، فهناك لجنة المطبخ ، ولجنة لشراء المواد الغذائية ، و .. للشعر ، ولجنة للحراسة ، وسادسة للمعلومات ، هذا عدا اللجان غير المعلنة التي أسمع عنها الكثير ولم أعرف مهامها ، حتى انني قلت ذات يوم في نفسي : مدينـة لام تحولت الى سجن ، ثم تيقنت من ذلك الذي قلته مع نفسي بعد فترة ، فقد جاءني أحد السجناء وانتحى بي جانبا قصيا ثم أسر في أذني :

ـ لا تقرب : أحمد العبدالله

سألت مستغربا :

ـ لمـاذا ؟

ـ انـه خطـر

قلـت مغتـاظـا :

ـ ولكنك تعرف صلتي به .. انه ..

قاطعنـي بحـدة

ـ هذا غير مهم ، اننا نفكر جديا في مصلحة السجن

سـألـت :

ـ وماذا فعل ليتعارض مع مصلحة السجن ؟

ـ النـار !

ـ ومـاذا بهـا ؟ انهـا نـاره

رد وكأنه يريد انهاء الحديث

ـ لقد أبلغتك رأي المسؤولين ، وانت أدرى بمصلحتك .

وشعرت بالقشعريرة تسري في جميع أوصال بدني ، فلم أكن أرى في نار أحمد العبدالله ما يبعث على القلق ، لقد كان يتلهى بها ، ولم يكن يفكر في حرق السجن . ولم ييأس ذلك السجين مني ، فجاء بعد ثلاثة أيام ، وجلسنا في ذات المكان الاول ، وبادرني قائـلا :

ـ أحمـد مـريض

ـ اذن نرسله الى طبيب السجن

ـ لا

ـ ولكنه مريض كمـا تقـول

ضحك وضرب بكفه على فخذي فشعرت بالاشمئزاز ، وتابعت :

ـ انه مريض فعلا ، ألا ترى نحول جسده ؟

ضحـك مـرة أخـرى وقـال :

ـ لم يروضه «المستنقع» لثلاث سنوات فهل تعتقد أن طبيبا سيشفيه ؟

والمستنقع سجن مركب ، فهو مكان ما في السجن ، يعزل فيه السجناء من قبل السجناء أنفسهم، ثم تتخذ صيغ صارمة في التعامل معهم، فلهم أرزاقهم الخاصة ، ولا يقوم بزيارتهم أحد ، ولا تلقى على أحد منهم اية تحية . وغالبا ما تبدأ فكرة المستنقع بسيطة وفردية ثم تتحول تدريجيا الى نظام اخلاقي وسياسي صارم ، وحصة الذي يكون المستنقع مكانه من الكرامة ضئيلة حتى بين زملائه القاطنين معه ، فمواقف الضعف والجبن ، تعاد صياغتها من قبل فريق ذلك المكان ذاته ، يتحول الى عدة مستنقعات . ولان نزلاءه معزولون ، فانهم لا يحضون باحترام حرس السجن . ومن يتجرأ على تحية أحد نزلائه ، فان عقوبات فورية توجه اليه . وعندما التقيت وليد الاحمد فيما بعد ، وأخبرته عن حكاية المستنقع بدا عليه التوتر وقال : هذا اجراء احترازي . لم اتفق معه وقلت : ألا يعيد اليك المستنقع الفكرة البسيطة التي قامت عليهـا دائـرة الاستعلامات الوطنية ؟ . تغافل وتصرف كما لو أنه لم يستمع الي ، فقلت بلهجة أكثر حده : من أنت حتى تصدر قرارا باعدام أحد ؟ فصرخ في متوترا : « ومن قال لهم أن يكونوا ضعفاء ؟ » .

« وليد الاحمد سجين أيضا » تماما كذلك السجين الذي حذرني مـن والده . وعندما عدت الى أحمد العبدالله وناره، كنت أردد مع نفسي « الامن ..؟

أي أمن يريده هذا السجين ؟ » وكان أحمد العبدالله يديم اشعال ناره دون أن يكترث بي ، حتى اذا ما دنوت منه هز جريدة السعف في وجهي وصرخ في « انتهت مدينة لام » كنت اعتقد أنه ينهر السور ، فقد كان خلفي ، وأنا اعاين اللهب دون أن أفطن الى ما كان يرمي اليه ، لذلك هممت ، هممت فقط ، ونظرت اليه .. كان الفصل صيفا ، والرمال المتحركة خلف السور ، تعلن عن حضور ليس بحاجة الى تأكيد ، تئز اذ ترتطم ذراتها بصوت العنف الذي يولده اصطدام حركة الرياح اللولبية السريعة ، فرأيت أمامي رجلا يتحصن بعباءة من الوبر، يداعب نارا متقدة بجريدة من سعف النخيل وهو يقول « ماتت مدينة لام » . ثم واجهني ولوح في وجهي بالسعفة المجرودة زاعقا : « وانت .. ماذا تقول ؟ » .

لو كنت في السنة الاولى ، لاستحضرت جوابا في الحال ، الا أن الزمن كانت له حركة الرمل خارج السور ، حتى اذا ما أمعنت النظر اليه ـ وكان يمر من امامنا فريق الكورال ـ لم امتلك زمام نفسي وأخذت أصرخ في وجهه « يا ابن الم » ان هذا كله هراء .. النار المشتعلة هنا .. النار الموقدة في المطبخ ،، والنار التي تحت أوعية الشاي في الردهات .. والحرارة المحفوظة في القراميس .. وذلك الدفء الخبيء بين الجلد واللحم . وكما لو أنني عتلت عتلا الى الايام الاولى لمدينة لام ، وطفولتي ، وذكريات الخرائب ، وسالمة ووليد ، حاولت أن افتكر هذا الزمن . كان زمنا خاصا بالسجناء : زمن النهوض المبكر أو المؤجل في الصباح أو المساء ، زمن الصخب والعنف والاعتقادات التي لا تمتثل الى يقين سوى القبول بالذي يحدث داخل السور ، انه زمن المدينة القديمة في أكثر تشويهاتها حدة ، كان زمنا مخالفا : غياب العقل ، غياب الروح ، كان زمنا مخالفا : حضور الجسد في أعلى ذراه التصاقا بالارض، الجسد المحكوم بالارض ، المنغمر في امتثالاته كجسد يتقبل اصفر تشوه ازاء الجمال الذي يوحي به جسد السجين ذاته ، ولكنه الجسد المتعارض مع اندفاعاته وصبواته أحيانا، ثم انه أيضا رغبة الجسد في ان يحيا ويتحرك، تماما كالرمال المتحركة خارج السور . كان زمنا استثنائيا : انهيار الروح ، انثلام العقل ، ورغبة الجسد في أن يكون سيدا وعبدا .

ولما قلت لنفسي : لأماحك ذاكرتي ، أيقنت أن هذا هراء أيضا . فهذه الذاكرة تكاد تكون نشفت ، فراغ دائم متصل ، وحركات ميكانيكية محضة ، الاعتياد يتحول الى نمط ، والكل يتحركون مربوطين في خيوط سرية الى جهة ما في احدى الردهات العشر ، تماما كما كان يحدث في أواخر أيام مدينتنا ، حين كان الجميع ، بدون استثناء ، يقادون سرا وعلنا بالخيوط السرية ذات البكرة الواحدة الموجودة في أحد دهاليز دائرة الاستعلامات الوطنية ، واذا وجدت نفسي أفتح عيني على سعتهما لم أجد الا شمس تموز الحارقة وأحمد

العبدالله متحصنا داخل عباءته : وجهه الى النار ، يوجرها بالسعفة المجرودة، والسنتها تطول وتقصر ، ومن حواليها وفي داخلها ، تتحرك الريح رضية ، كأن شيئا ما لا يرين على هذا المبنى المسكون بالاجساد والحركات والصراخ في أحيـان كثيـرة ..

اقتربت منه فاقترب هو مني دون أن يتحرك ، وللآن لم أر مـاذا كـان الجسد داخل العباءة يتضمن من تفاصيل ، سوى أن الوجه بعينيه اللتيـن كفتا عن أن تطرقا ، والفم المزموم الشفتين ، الشفتين الرفيعتين والفم الادرد، يقذفني الى ايام بعيدة ، لا أمتلك الآن ناصية الحديث لوصفها ، لانها كانت خارج حدود الوصف ، فهي حركة لا تنتمي الى أي قوى ، ولا تقترب لان تكون في دائرة الوهم ، حين توقف الصباح عن ان يكون صباحا أو عصـرا أو مساء ، أيام : أمام حبل الاعدام ، طلقة الاعدام ، وقلت له : تساوت الرؤوس وتشابهت الحيوات ، وكنت اعتقد أن كلماتي سوف تستفزه ، بيد أنه بقي مصغيا لحديث النيران ، يدير بصره بين حركة والتواءات ذؤاباتها ، ثم حدث الحدث الذي ما أزال أخاله حلما : وقف أحمد العبد الله على قدميه ، وبحركة مباغتة من يديه ارتمت العباءة فوق الارض . كان عاريا بصدر أعجف وبطن ضامرة وساقين مزليتين ويدين أكثر هزالا ، وتقدم الى النار حتى صار وسط اللهب وزعق : « اين انت يا سالمة !! » وخر على وجهه بينما كانت النيران تنمو فوق ظهره وكتفيه .

لم يقترب أحد منا ، كان الجميع يسيرون قريبا من المكـان دون أن يطلقوا نأمة صغيرة «مدنية مدينة لام» وأيقنت بما قاله أحمد العبدالله، عندما لاحظت ذلك السجين الذي تعود تحذيري من احمد العبدالله ينظـر صوبنـا ساخرا . ولم أمد يدا الى الجسد العاري الذي تنمو عليه النيران ، فقد كـان أحمد العبدالله يبكي لاول مرة وآخـر مرة .

لم انس ذلك البكاء . وحتى بعد أن فتحت بوابة السجن الرئيسيـة وخرجنا منها ، لم يغب عني مشهد جسد أحمد العبدالله في ذلك الوضع الرزي، وكنت ازداد اقتناعا بأنه كان يخاطب الحياة الحقيقية داخل السور وخارجه ، مثلما أيقنت من وجود زمن في هذا المنفى الذى تحول الى مدينة . على أنني عندما التقيت سالمة بعد ذلك بخمس سنوات تعرفت على زمن أحمد العبدالله.

وكان يقهقه ، كان يقرأ أفكاري ، رجل في الخامسة والثمانين ، قائـم فوق ناره التي يعلفها يوميا ، متحصن في جلده المتغضن فقط ، وهو يقهقه بطريقته التي لا تجارى ، رجل في الخامسة والثمانية ينهمر تاريخه في صمته وفي ضحكه الفريد وحركة مشيته المنكفئة .

لم يكن يضحك ، كان يرفع ذراعه الى الاعلى ، غير مشير الى أية نقطة، لكن حركة ذراعه كانت كافية لتؤكد له أنه كان حيا بعد ذلك الصباح الشتوي،

ولن هذه الذراع التي توجر النيران بامكانها أن تستدعي الله وتسأله عن نهاية هذا الخراب ، وتمتد الى آخر نقطة في السماء ، وتطال الشيء الذي تريده ويتابع قهقهاته ، بينما عيناه لا تطرفان ، أو ينحني فيديم اشعال النيران ، أو يباغتني بكلمة .

في الايام الاولى كان يروق له الحديث . كان يقول لي : اقترب من نفسك أكثر مما تستطيع ثم اهجرها اذا شئت، هذا اذا استطعت هجرانها. ويقترب من مصباحه النفطي في الردهة الاولى « المستنقع » ليعاين زيته ويقول « هذا هو المستنقع اذن » ، ويتابع ـ بعد أن يشير وكأنه يرسم دائرة ـ « هذا السور يتحول الى حياة أكبر منه ، لماذا ؟ » .

السور ، لم نكن نفكر في عبوره . كنا نصبحه ونمسيه ، ونعلق عليه حبال ملابسنا ، ونبني في زوايا التقاء جدرانه اقفاصا للطيور والحمام والطيور الغريبة او نزرع ـ مع امتداده ـ بذور الرقي والبطيخ ، تحت الظلال الوارفة لشجيرات عباد الشمس . وفي الليل يكون السور شاهدا .

في الليل يتحول السور الى رفيق صامت ورقيق وأكثر سرية . انه معي ومع أحمد العبدالله وبقية الذين ينامون في النهار ، اكثر من صديق ورفيق رحلة لكنه العدو ايضا ، فاذ ندور مع استقامته وانحرافه المفاجيء يقابلنا بذلك الهدوء والصمت الاسطوريين ، وذلك التلغيز المبهم والمحير للحيوات التي تتناسل خلفه . واية حيوات ؟ لم يكن بالمستطاع حصرها في راحة اليد أو حتى الاخلاد الى كونها حقيقية . كنا نعرف أنها تتنفس مثلنا ، لكنها تظل نقيضنا : كانت حرة ومحايدة ، في حين كنا « سجانة ومساجين كما يقول رئيس العرفاء » .

قال أحمد العبدالله :

ـ أترى .. ؟ ان هذا حلم

سألت

ـ من هو

ـ انت لم تفهم بعد . فلنقل ان مدينة لام مانت ، فلنقل هذا ... ولكن كيف نستسيغ ابدالها بسجن ؟

في تلك اللحظة مرت من امامنا فرقة الكورال ، فتذكرت صافرات السجن وأناشيد القتال في ذلك الصباح البعيد ، والاخبار المتضاربة عن وليد وسالمة ، ثم انني كما لو اخترمت تلك الفاصلة للدقيقة بين الماء وبخاره رددت أمامه : « هذا حلم ، هذا كابوس » خزرني في عينين لا تطرفان مستفهما : « كابوس. ماذا تعني ؟ » وكانت الشمس خلف الرابية الشمالية كابية ومحزونة ، ثم تساوت المسافة بين النور والظلمة ، فاختلطا .

وكنا في الظلمة ، في تلك الظلمة الموحشة : الليل المتصادق أبدا مع

الظلام والصيحات الغامضة خلف السور وصوت ارتطام الابواب والزعيق الفظيع الذي تطلقه الارض الحصباء في فترات متفاوتة ، بينما كان النور ينبعث في ايماضات من نار أحمد العبدالله التي أخذ يعلفها بأحجار غريبة بعد أن مانع السجناء في اعطائه الاوراق المتسخة والملابس القديمة . كان ينظر الى الارض بشراسة ويبرك على قدميه ويحفر بخشبة في الرمل حتى ينتهي الى نتوءات تلك الاحجار . كانت أحجارا جوزية اللون ، شفافة وهشة ، فيرفعها برفق من جذورها الارضية ، ويضعها برفق أيضا وسط النيران المشتعلة ، ولم تكن تخبو بعد خفوت ألسنتها ، كانت تستمر في اتقاد لامع أخاذ .

وعندما باتت الاحجار تنضب ، حدث ذلك التطور الذي لم أحسب لـه حسابا . كان ذلك في صباح خريفي ، رأيته يحزم فراشه ويكوم متاعه الضئيل في علبة ورقية سمكية ، ولم يكن ثمة ما يثير الاستغراب ، فلقد تعودنا على ما كان يؤديه أحمد العبدالله يوميا مع بداية الصباح : اذ يستيقظ من نومه يركن الى فراشه الرث ويطويه بعناية ثم يشده بحبل ويجمع متاعه في العلبة الورقية ، ويجلس القرفصاء هنيهة ثم يدخن قبل أن يبل ريقه ، مطيلا النظر الى الارض ومتحصنا بعباءة الوبر المرقعة . بعده يتوجه الى السور ليحاذيه في مشي سريع خفيف . أما في ذلك اليوم فقد جلس القرفصاء كعادته ودخن سيجارته ، لكنه بدل أن يتوجه الى السور حمل فراشه واتجه صوب بوابة السجن الرئيسية ، وأخذ يحفر في الارض الحصباء متسعا منخفضا ، وجاء بحزمة من عاقول ووضعها في الموقد وأشعلها وطفق يديم اشعالها والنظر اليها.

منذ ذلك اليوم ترك صلاته المعتادة ، في الردهة الاولى ، حيث تقاليد المستنقع ، بعد أن يتأكد من أنه أصبح وحيدا ، يتربع فوق البطانية السوداء ويبدأ ينود ، لم يكن يصدر أي صوت ، كان يحرك شفتيه متيحا لفكيه حركة دقيقة ، مرسلا بصره الى الاسفل ، مسافرا في ملكوت الاحياء والاموات ، دون أن يعير انتباها لخفق أحذية النزلاء الذين يمرون أمامه ، بعد أن بدأت الشمس تطلع في الجانب الشرقي من السجن والعالم .

بالاكيد كان يصلي ، كنت الى جانبه في تلك الايام نائما أو ناعسا ، أنظر الجسد المتحصن بالعباءة ، يلتفت مغمض العينين الى اليمين والشمال، يمرر كفيه على جبهته وخديه ، ويهبط برأسه الى الاسفل ، كمن يهبط في مرجل لا قرار له ، معطيا جسده تلك المرونة التي يتحكم بها من يعيشون اتصال الليل بالنهار ، ثم اتبين ارتعاشات جسده من داخل العباءة ، انه يخاطب اناسا لا أراهم ولا أعرفهم ، ثم يغمره السكون بينما وجهه يصفر ويرتعش منخراه ، وكأنه يحمل على كتفيه وزرا ثقيلا . على أنه ، أحيانا ، كان يلتفت الى ليقول باشارة مقتضبة : « هل ما زالت تعتقد بالغلط والصواب ؟ » . وكنت أقول في خلواتي : ان احمد العبدالله يخضع نفسه الى مرافعات مستمرة،

انه الحاكم والمتهم والشاهد والشرطي والسجان وأسياخ السجن. لكنني كنت أقول أيضا ، إنه يحاكم الذين لا أراهم ، وليد وسالمة وملكة والذين في دائرة الاستعلامات الوطنية ، واولئك الذين هبطوا علينا من عل ، لان ارتعاشات جسده ، من داخل عباءة الوبر ، تتحرك مثل أسماك صغيرة تلبط في كيس شبكي فغرت عيونه الصغيرة بدقة .

وعند الليل ، افتقده السجناء . كانت الزوبعة الخريفية خارج الردهات عارمة . اختفت النجوم خلف سماء محمرة الاديم ، والهواء المجنون ينقل ذرات الرمل بسرعة اكثر جنونا ، وفوق السور ، كانت الاسلاك الشائكة تطلق اصواتا غاضبة اذ تصطدم بها الرياح ، بينما كان أحمد العبدالله قريبا من البوابة الرئيسية يديم اشعال ناره بالاحجار الهشة واقفا على ساقين هزيلتين، تطير عباءاته في سورات الريح المدمدمة ، وبيده اليمنى يمسك جريدة السعف ويجار : هراء ، ان هذا هراء .. هذا الذي يحدث كله هراء .

كان وجهه ملتهبا بلون سمكة شويت على عجل بروث البقر ، وكانت عيناه لا تطرفان وهو ينظر الى نيرانه ، وخيل الي في تلك اللحظة أنه قد تخلى عنه وعنا . جميعا . كان يخترق السور ليسافر الى حيث يشاء ، ويحرق بنيرانه كل من يعرف والذين يكره أو الذين لا يريد ان يراهم ، وكان قريبا الى النار حتى لتكاد تصفعه ، متراجعا الى ماض غير قابل للحفظ في اضبارة ، انه ماضيه هو وليس ماضي المدينة ، لان « لام » انتهت في عقله وقلبه . ورأى في النار صورته القديمة ، وتلك الهجرة من الكوفة الى العمارة والتوقف عند النهر الصغير ، كان يرى قافلة جده الاكبر ، وفي المقدمة « الم » كفيف البصر يترنح : « لقد أغلق الابصار جفني من شدة البصر .. فيا لتعس النور والظلمة !! « و ...

وسمعت صوت رئيس عرفاء السجن : « هذه ولاية ؟ قف » واستدار راجعا الى مبنى الادارة ، منحني الظهر ، متقوس الكتفين ، يدوس على أرض حصباء ، ويردد : هذي ولاية السجانة والمساجين ، قف . وبصق على الارض، بينما اقتعد أحمد العبدالله علبة من الصفيح .. كان الوقت بداية الصباح ، وقد توزع السجناء الفسح الصغيرة التي تفصل بين الردهات .. كان هذا بداية اليوم السجني ، وكان ثمة من يقوم بعمل شاي الصباح والاستعداد لتهيئة طعام الغداء ، وفي الزوايا القصية كان هناك من يخيط حقائب صغيرة من خرز ملون .

واذا وصل الى البوابة الصغيرة التي تعزل القلعة الحجرية عن القلعة الجديدة ، نظر رئيس عرفاء السجن باتجاه البوابة الرئيسية المغلقة ، حيث كان أحمد العبدالله يقول « اسمع الحكمة من سبحانك ، هذا زمان !! » داخلني شيء من الاطمئنان ، فقد تحدث الي بعد انقطاع . لكنني تشاءمت عندما

سالني : « وماذا بعد النار ؟ » .

الجنة . قلت هذا لقلبي . وخمنت أنه يعاتبني . وفي لحظة تشبه لحظة انخطاف قلب الطفل الصغير عندما يسمع كلبا يعوي في ليلة باردة ومطيرة ، أدركت ذلك الذي حدث : كنت مشاركا فيه ولم أنتب ، وكان قسط منه داخل عباءة أحمد العبدالله ، ولم يكن خارجه وليد أو سالمة . أما دائرة الاستعلامات الوطنية فهي التي قادت المدينة الى الخراب ، ثم اننا ، بعد هذا كله ، سلمنا لقمة سائغة . كان قرار دائرة الاستعلامات الوطنية بالقتل قرارا آثما ، لان أيا من رجالها لم يقاتلوا .. ولكن الذي كان اكثر اثما هو قرار الاستسلام ، لان رجالها لم يستسلموا ، لقد اجتمعوا الى الغزاة ، وصفوا الحساب في لقاء واحد . وكان أحمد العبد الله يورث ناره عندما سالني : « ماذا يفعلون في الردهات الاخرى ؟ »

يلعبون النرد والداما ، يتماحكون بالقراءة واصطياد الافكار ، يتحدثون عن الماضي ويمارسون كذبا أسود وأبيض ، يكتبون رسائل عاطفية لنساء متوهمات ، يدارون الهزيمة بالشعر ، ويعالجون الخراب بأفكار المستنقع .. هذا هو السجن في آخر أيامه . واحتفظت بهذا كله لنفسي ، دون أن اجيب على تساؤله .

وفي بداية السنة التاسعة خمدت ناره فجاة .

ـ قل يا أحمد العبدالله .. ما هو الامل ؟ .

وعرفت انني تورطت . فما كان علي أن أنكل به بمثل هذه القساوة . كان موقد النار وسخا ، فجاء باحجاره الهشة وكومها من جديد فوق الوساخة وأدنى منها عود الثقاب المشتعل . بيد أن الاحجر فضلت أن تظل باردة ، وحاول مرة أخرى وثالثة ورابعة .. لكن الاحجار ظلت ترفض الاشتعال ، عند ذلك استدار الى صندوقة الصغير وفتحه عاجلا وصرخ « هراء .. هراء، ذاكرتي خرج كاف » .

ولم اتمكن من مصادفة الرجل وحديث السور بعد ذلك اليوم ، والآن اذ أقف في المكان الذي كانت فيه مدينة لام قائمة ، فان ما أقدم عليه أحمد العبدالله لا يمكن أن يمحى من ذاكرتي .

ان للضفة الغربية رائحة الماضي ومعناه ، فبين هذه الخرائب رايت الخراب ، وعندها اليوم اجتمعنا وليد وسالمة وأنا .

قال وليد الاحمد :

ـ والدي لم يمت

قالت سالمة :

ـ روح المدينة باقيـة

ولم ترق فكرتها لوليد الاحمد الذي تساءل :

ـ أحمد العبدالله ؟

لكنه كان أمامي منكربا وحزينا فقد كان أباه أيضا ، قلت :

ـ كان متوحدا . أخرج مقتنيات الصندوق الصغير وفرشها على الارض وقال : هؤلاء هم جنودي ، ان جنودي لا يهزمون ، وسوف يتعيـن عليكـم استدعاء الموتى ، وقولوا لهم : يقول أحمد العبدالله : تعالـوا يا أولادي .. تعالوا أيها البؤساء الذين قاتلتم وهربتم .. ثم قال لي : اذهب عنـي أنتَ . فتحركت قليلا ، غير أنه أمرني : ابتعد ابتعد . قام على حيله ، ورمى عباءته على الارض ، وتحرك باتجاه السور ، كان يمشي متطاولا ، صاعدا الى الاعلى ومنكفئا الى الارض ، عاريا تماما ، حتى اذا ما التصق بالسور أمسك بأول بروز قابل يديه في السور ، وحاول ان يتسوره . كرر الامسـاك بالبـروز ، وتشبث بالجدار بكلتا يديه ورجليه ، حتى استطاع في الاخيـر أن يعلـوه ويجلس على قمته . كان السجناء قد اجتمعوا حينئذ وهم يراقبون الرجـل العاري الذي سيغادرهم للتو .

فجـاة صـرخ أحدهـم :

ـ يا رئيس العرفاء .. هرب أحمد العبدالله .

من الرابية القريبة ، كان أحد الحراس يراقب الموقف ساخرا ، لكنه اذ سمع صيحة السجين سدد بندقيته على أحمد العبدالله وأطلق رصاصة ثم ثانية ، فانهار الجسد العاري ، نصفه داخل السجن ونصفه الآخر خارج السور.

لم يكن ميتا ، قلت ، كان نائما ، وجهه الى الارض ، ورغم الضوضاء ، اقتربت منه كثيرا فسمعته يقول : « يا عوزي الثاري ، كيف الغلـط ، كيف الصـواب ؟ » .

قالت سالمـة :

ـ كل المدن ترفضنا . اننا نعيش حياة سرية . وكان وليد الاحمد قد غير هيأته ، فلقد تزيا بزي رجل دين ، وبدت سالمة أمامي ، مثل ربة بيت من بيوت مدينتنا القديمة .